جامعة الأزهر
كلية اللغة العربية
بإيتاي البارود

خصائص النسق البياني
عند الشيخ محمد الغزالي
في كتاب {جدد حياتك}

الدكتور

محمد محمد إبراهيم بظاظو

الأستاذ المساعد في قسم الأدب والنقد
بكلية اللغة العربية بإيتاي البارود

مُقَدِّمَة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم المرسلين، وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد،،،

فمن حق علمائنا علينا أن نرفع ذكرهم، ونبرز جهودهم، وننشر علمهم، ونجلي مآثرهم.

ولقد كان لفضيلة الشيخ محمد الغزالي (رحمه الله) نسقه الخاص وطريقته المميزة في الأداء التعبيري في مؤلفاته، فأحببت أن أسلط الضوء على خصائص ذلك النسق، واخترت كتابا تشتد الحاجة إليه في زمن (الهموم والسموم) كما عبر في كتابه، ليكون كشفا (للهموم)، ومصلا واقيا من (السموم). . إنه كتاب **{جدد حياتك}** الذي تضمن جانبا معرفيا يصل ثقافتنا العربية بالثقافة الغربية، حيث إنه جاء تأصيلا لما ورد في كتاب **(دع القلق وابدأ الحياة)** لمؤلفه **(ديل كرنيجي)**، ففتح الباب للاطلاع على نمط آخر من التفكير، والتعرف على طرق متعددة لمعالجة المشكلات النفسية.

من هنا كان عنوان البحث **(خصائص النسق البياني عند الشيخ محمد الغزالي في كتاب** "جدد حياتك"**)**.

وربما يتبادر إلى الذهن من أول وهلة أن هدف البحث هو المقارنة بين ما كتبه الشيخ الغزالي وما كتبه **(كرنيجي)**، وليس هذا – في الحقيقة – هدف البحث، بل هدفه: تجلية وإبراز معالم النسق البياني عند الشيخ الغزالي شكلا

ومضمونا، فعدساته التحليلية إنما تتركز على ما كتبه الشيخ، ولا يجيء ذكر **(كرنيجي)** إلا باعتباره مصدرا من المصادر التي اعتمد عليها الشيخ في كتابه، ولا تأتي المقارنات العارضة بينه وبين الشيخ إلا في هذا الإطار، كما أن اختصاص بحث في المقارنة بين **(جدد حياتك)** و **(دع القلق)** إنما يدخل في **(الدرس المقارني)** الذي يحتاج إلى دراسة كتاب **(كرنيجي)** في لغته الإنجليزية، وليس في نسخته المعرّبة.

وقد قسمت الدراسة إلى تمهيد ومبحثين.

أما **التمهيد** فيعرف بحياة الإمام (رحمه الله) وبمؤلفاته، ثم يعرج على الدافع لتأليف الكتاب، ومنهجه فيه، والمحاور التي عرضها من خلاله.

ثم جاء **(المبحث الأول)** ليعرض **(خصائص الشكل)** في النسق البياني عند الشيخ، وهي:

١. الافتتاح الحاشد.
٢. تآزر الأسلوبين الخبري والإنشائي في الإقناع والإمتاع.
٣. دقة توظيف الصورة البيانية.
٤. براعة الاستدلال المنطقي، ودقة الاستشهاد النصي.
٥. متانة السبك ودقة الصياغة في الاستنتاجات والتعليقات.
٦. طول العبارة في حالات الاستقصاء والتفصيل.
٧. توظيف نمط الكتابة وتشكيل السطر.

وفي **(المبحث الثاني)** بينت **(خصائص المضمون)** وهي قسمان:

أولهما: ما يتصل بطريقة تعامل المؤلف مع المعلومات المعرفية وتطبيقاتها، وهي:

١. توازن الرؤية في معالجة المشكلات النفسية والقضايا الدينية.

٢. إصلاح عوج الفهم للقضايا والنصوص.
٣. مقاومة جزئية الرؤية ونصفية الفهم.
٤. رصد التشوهات النفسية التي تفسد عالم التفكير أو التدين.

وثانيهما: ما يتعلق بأصالة المضمون المعرفي، تلك التي تجمع بين الاستمساك بالجذور والانفتاح على مصادر الفكر الإنساني وهي:

١. الإفادة من التجارب الإنسانية مهما تنوعت مشارب أصحابها وثقافاتهم.
٢. تجلية المثل العليا لتكوين النموذج الإنساني الراقي.
٣. الانتصار لقضايا الإيمان في مواجهة الإلحاد.
٤. الإشادة بالميراث التربوي والقيمي للنبي (ﷺ) ثم لعلمائنا الأوائل، وإبراز جهودهم في هذا المجال.

وإنما قدمت خصائص (الشكل) لأنه الوعاء الذي يحمل المضمون ويحتويه، وبقدر شفافيته يتحقق الهدف من الرسالة المضمونية، كما أن دراسة (المضمون) لا تقل أهمية عن دراسة (الشكل)، فـ (النسق) لا يمكن تصوره، بأحد هذين العنصرين دون الآخر.

وقد استرشدت خلال الدراسة بمراجع متعددة أثبتها في نهاية البحث.

"رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ"

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

د/ محمد محمد ابراهيم بظاظو
الأستاذ المساعد في قسم الأدب والنقد
بكلية اللغة العربية - بإيتاي البارود

تمهيد

فضيلة الشيخ محمد الغزالي

سيرته ومنهجه في كتابه

ولد فضيلة العلامة الإمام / محمد الغزالي أحمد السقا في الخامس من ذي الحجة ١٣٣٥هـ(١)، الموافق للثاني والعشرين من سبتمبر١٩١٧م، في (نكلا العنب) التابعة لمركز (إيتاي البارود) بمحافظة البحيرة، وسماه والده بهذا الاسم تيمنا باسم حجة الإسلام أبي حامد الغزالي، المتوفى عام ٥٠٥ هـ.

نشأ في أسرة متدينة، أتم حفظ القرآن في العاشرة من عمره، درس في معهد الاسكندرية الأزهري حتى حصل على الثانوية، ثم التحق بكلية أصول الدين وحصل منها على (العالمية) سنة ١٩٤٣م، تلقى العلم على يد الشيخ عبد العظيم الزرقاني، والشيخ محمود شلتوت، والشيخ محمد أبو زهرة، والشيخ محمد المدني.

نشر له أول مقال بعنوان (خواطر حية) عام ١٩٣٩م، وظهر أول كتاب له وهو (الإسلام وأوضاعنا الاقتصادية) عام ١٩٤٧م، واعتقل لمدة عام سنة ١٩٤٨م في معتقل الطور.

تدرج في العمل بوزارة الأوقاف إماما وخطيبا ثم مفتشا للمساجد، حتى صار مديرا للدعوة، ثم وكيلا للوزارة، وعمل أستاذا بجامعة أم القرى، وجامعة

---

(١) يرجع في الترجمة للشيخ إلى: الشيخ الغزالي كما عرفته، رحلة نصف قرن. د/ يوسف القرضاوي. ط١. دار الشروق. سنة ٢٠٠٠م. و: حوار هادئ مع محمد الغزالي. سلمان العودة ط١. ١٤٠٩هـ. و: موقع (قصة الإسلام) إشراف د/ راغب السرجاني على شبكة المعلومات العالمية.

الملك عبد العزيز بالمملكة العربية السعودية، كما عمل بكلية الشريعة بقطر، ورأس جامعة الأمير عبد القادر بالجزائر.

قاربت مؤلفاته الستين كتابا، تميز فيها من الناحية الفكرية بالغيرة على الإسلام والدفاع عنه، وتوضيح تعاليمه، ودحض الشبهات المثارة حوله. ومن الناحية الأسلوبية بالنسق الأدبي الرائق، والسياق البياني الممتع، والصياغة المركزة، الملتهبة أحيانا، وبخاصة في مجال مواجهة أعداء الإسلام وانتقاد أوضاع فاسدة أو تقاليد ضالة.

ومن كتبه التي تمثل نهجه البياني **(قذائف الحق)** و **(من هنا نعلم)** و**(معركة المصحف)** و **(ظلام من الغرب)** و **(هموم داعية)** و **(الحق المر)** و**(فقه السيرة)** و **(دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين)** و **(مستقبل الإسلام خارج أرضه)**.

وقد حمل الشيخ رسالة الإسلام، يبلغها ويذب عن حياضها، ويتحمل في سبيلها صنوفا من العنت، حتى لقي ربه مجاهدا بكلمته، في مؤتمر **(الإسلام وتحديات العصر)** بالمملكة العربية السعودية، في العشرين من شوال ١٤١٦هـ الموافق للتاسع من مارس ١٩٩٦م.

وقد نشر للشيخ الغزالي ديوان شعري بعنوان **(الحياة الأولى)**، أصدرته دار الشروق، عام ١٩٩٨م وحققه وقدم له د/ مصطفى الشكعة.

وللشيخ الغزالي رؤية حضارية تجاه الموروث الثقافي الإنساني العالمي على اختلاف لغاته وأوطانه، تلك الرؤية ترتكز على الإفادة من التجارب البشرية والثقافات الإنسانية التي ترعى (إنسانية) الإنسان، باعتباره كائنا مكرما من خالقه سبحانه، حيث خلقه بيده ونفخ فيه من روحه، وأسجد له ملائكته، وعلمه الأسماء كلها، ثم استخلفه في الأرض ليعمرها باسمه.

وهذه التجارب – بهذا المنظور وفي إطاره – ستتضمن (الحكمة) التي هي ضالة المؤمن، وستكون الصلة قوية بينها وبين تعاليم الإسلام.

من هنا جاءت فكرة كتاب {**جدد حياتك**}، فقد صرح الشيخ (رحمه الله) في أول لقاء تليفزيوني له مع الإعلامية (كريمان حمزة) حول هذا الكتاب بأن فكرته نبتت بعد قراءته لكتاب (**دع القلق وابدأ الحياة**) للكاتب الأمريكي (**ديل كرنيجي**)(١) كما صرح الشيخ بذلك في كتابه (**جدد حياتك**) حين قال: "لقد قرأت كتاب دع القلق وابدأ الحياة فعزمت فور انتهائي منه أن أرد الكتاب إلى أصوله الإسلامية "(٢).

وصرح الشيخ – أيضا – بأن خطته في الكتاب "أن يعرض الإسلام نفسه في حشدين متمايزين، الأول من نصوصه نفسها، والآخر من النقول التي تظاهرها في كتابات وتجارب وشواهد (ديل كرنيجي)(٣)، وتلك الخطة تنطلق من كونه صاحب رسالة؛ إذ يقول "فأنا قبل كل شيء كاتب مسلم آمنت بهذا الدين عن دراسة مجردة لأصوله، وأعرف أن حاجة العالم إليه غير متوقفة على شواهد تجيئه من هنا وهناك"(٤)، كما تنطلق من حرصه على العربية وخوفه

---

(١) عنوانه بالإنجليزية (**How to stop worrying and start living**?) وقد ترجمه عبد المنعم الزيادي وضمنه سيرة موجزة لحياة (كرنيجي)، أما المؤلف (**Dale Carnegie**) فقد ولد بولاية (ميسوري) في الولايات المتحدة عام ١٨٨٨م، وتوفي عام ١٩٥٥م، وهو مؤسس معهد كرنيجي للعلاقات الإنسانية بنيويورك، ومن كتبه (كيف تكسب الأصدقاء) انظر ترجمته في مقدمة (عبد المنعم الزيادي) لكتاب (دع القلق)/٥ ط١٦، مكتبة الخانجي، القاهرة.

(٢) جدد حياتك: فضيلة الشيخ محمد الغزالي /١٢، ط٦، دار الدعوة. الاسكندرية.

(٣) السابق /١٣.

(٤) السابق.

مما يدبر لها، لذا حرص في كتابه على إحياء الحكمة العربية الأولى، وإمتاع القراء بطرف منها...وأن يحيا مع قرائه في جو عربي خالص كما عاش (كرنيجي) مع قرائه في جو أمريكي بحت. (١) ويذكر الشيخ في الحلقة الأولى من لقائه التليفزيوني أن له أسوة بعلماء سابقين في نهجه الذي يربط بين "تعاليم الإسلام كما وصلت إلينا، وبين أصدق وأنظف ما وصلت إليه حضارة الغرب في أدب النفس والسلوك"(٢). ومن هؤلاء الإمام **(ابن تيمية)** في كتابه **(درء تناقض العقل والنقل)**(٣).

ويدور كتاب **(جدد حياتك)** حول محورين؛ أسباب القلق، وعلاجه، أما أسبابه فتتناولها موضوعات (هموم وسموم)، **(آفات الفراغ)**، (لا تدع التوافه تغلبك على أمرك)، وأما العلاج فهو الجانب الأكبر من الكتاب ووقد خصص لها المؤلف (رحمه الله) ثمان عشرة نقطة، هي كل النقاط الباقية في الكتاب عدا واحدة فقط، يمكننا اعتبارها تقديما للنموذج الإنساني العالي الذي لا ينال منه القلق لارتباطه الدائم برب الكون ومدبره، ذلكم هو النبي الخاتم (ﷺ) والذي اختار الشيخ جانب (الروحانية) منه ليكون محور موضوعه **(روحانية الرسول)**، بأسلوب يفيض حبا وإجلالا واعتزازا بالرسول الكريم، يقول عنه: "إنه المثل العليا كلها في إطار من اللحم والدم...والعالم من أزله إلى أبده لا يعرف إنسانا استغرق في التأمل العالي ومشى على الأرض وقلبه في السماء..

(١) جدد حياتك /١٤.

(٢) السابق/١٢.

(٣) حققه د/ محمد رشاد سالم ونشرت طبعته الثانية جامعة الإمام محمد بن سعود سنة ١٤١١هـ.

كما يعرف في سيرة محمد بن عبدالله (ﷺ) إنه خير من حقق في نفسه وفي الذين حوله حياة الإنسان الكامل.

وبذلك يكون الكتاب قد تناول مشكلة القلق بشكل عملي، فهو يعرض أسباب المشكلة وحلولها والنموذج التطبيقي الواقعي لتلك الحلول، وإذا كان (ديل كرنيجي) قد قدم في كتابه نماذج من العالم الغربي تمثل التكوين النفسي والعقلي للمجتمع هناك، فقد قدم الشيخ (رحمه الله) النموذج الرباني الذي قدم الإسلام للناس كيانا حيا على الأرض، يتلألأ صفاء نفس وإشراق روح، ويتسامى على أوهاق القلق وحبائله، وإن كان الكتاب لم يقتصر – بالطبع – على النموذج النبوي كمثال تطبيقي لحل مشكلة القلق، فقد عرض صورا من حياة الصحابة الأجلاء ثم من حياة علمائنا وأدبائنا(١).

لكن المؤلف (رحمه الله) اختار نهجا حرا في ترتيب موضوعات الكتاب ومحاوره، فلم يقسمه إلى فصول مرتبة في **(الأسباب والمظاهر والعلاج)** للمشكلة، بل انطلق في عرض المحاور على سجيته، فجاءت بعض محاور (العلاج) مقدمة مثل **(عش في حدود يومك)** بينما تأخرت بعض الأسباب مثل (آفات الفراغ).

وقد بدأ كتابه بمقدمة تلمح إلى محور الكتاب وغايته أما المحور فعرض نتاج **(الفطر النقية)** في الشرق والغرب وإثبات أن **(وحي التجربة)** لدى أصحاب تلك **(الفطر)** لا يتناقض مع **(وحي السماء)**، وأما الغاية فهي العودة بالنفوس البشرية إلى فطرتها كما خلقها الله، وتنقيتها من العلل والملوثات النفسية التي تجلب القلق والتعاسة.

---

(١) من ذلك ما جاء في صفحات ٣١-٧١-٩٦-١٠٢-١٢٦-١٢٧.

وقد عرض في تلك المقدمة دافع تأليفه للكتاب، وخطته فيه(١)، كما ختم كتابه بتوصية تحث علماءنا وباحثينا على توسيع نطاقهم المعرفي، والانفتاح على ثقافات الأمم الأخرى لانتقاء ما فيها من خير، وكسر طوق الانحسار، فالخير لا تدرك قيمته إلا بمعرفة الشر، ولا يقدر الإسلام من لا يعرف الجاهلية، وانحباس العلماء والباحثين عن ثمرات العقول في النطاق العالمي جناية في حق العلم والدين.

(١) ص ١٢-١٣.

المبحث الأول

خصائص الشكل

أود – في البدء – أن ألفت النظر إلى تداخل تلك الخصائص الأسلوبية، وتشابكها في تشكيل الهيكل العام للنسق شكلا ومضمونا، ولذا فإن فصلها عن بعضها يعد نهجا (تشريحيا)، وربما يعرض التكرار أو التماثل في تفاصيل بعضها لشدة الترابط بينها في النسيج العام للسياق.

١] الافتتاح الحاشد:

فلبدايات الموضوعات اهتمام خاص لدى المؤلف، إذ يحشد لها الطاقة، ويعتبرها (ضربة البداية) ففيها عدة سمات هي: التركيز وتلخيص الهدف المضموني للموضوع، وجذب انتباه القارئ، وتوجيه وعيه إلى محور القضية المعنية مباشرة، وتكوين ما يمكن تسميته **(الكرة الملتهبة)** التي يقذف بها الكاتب في المحيط الساكن فتثير اندهاشا يظل أثره باقيا في العبارات التالية التي تفسر وتوضح العبارة البادئة. ثم انعدام المقدمات؛ فالعبارات الأولى ليست تقديما ولا تمهيدا بل هجوم مباشر على النقطة الساخنة التي تؤرق الكاتب، والرسالة التي يبغي توصيلها.

ومن الأمثلة على ذلك:

١- قوله في بداية مقدمة الكتاب "أحب أن ألفت الجاهلين بالإسلام والقاصرين في فقهه إلى الخاصية الأولى في هذا الدين وهي أنه دين الفطرة! فتعاليمه المنوعة في كل شأن من شؤون الحياة هي نداء الطبائع السليمة والأفكار الصحيحة، وتوجيهاته المبثوثة في أصوله متنفس طلق لما تنشده النفوس

من كمال"([1]). فعبارة البداية هنا تتسم بأنها إعلان موقف أو إنذار هجوم، يصاغ في شكل نصيحة في طيها انتقاد حاد (الجاهلين...والقاصرين...أحب أن ألفت) ثم إنها تشعر بدور الحارس اليقظ، الذي لا يدع لخصمه فرية إلا بدره بالرد المفحم. ولذا نجده يبادر من فاتحة موضوعه، بل فاتحة كتابه إلى التخلي عن كل أشكال المقدمات التقليدية، قصيرة كانت أم طويلة، وكأنه يعلن أنه في حالة حرب، لا تتحمل الديباجات ولا المقدمات الملهية فهو كمنذر جيش، ذلك الذي يقول (صبحكم ومساكم) أو هو كالمصارع الذي يهيئ نفسه ويستجمع كل قواه ويحشد جميع طاقته ليهزم مصارعه من الضربة الأولى. نلمح ذلك في صياغة العبارة ؛ فالتعبير بالفعل (أحب) مع (ألفت) بصيغة المتكلم المفرد يشعر بتسلم زمام الأمر وامتلاك ناصية التوجيه للجاهلين والقاصرين، كما توحي باستشعار المسؤولية نحو تعليم الجاهل وتصحيح الفهم الأعوج، فرسالته تلازمه، وتحمله لها عامل قوي في تكوين تصوره، وفي حكمه على الأفكار والأوضاع والتقاليد، لا يكاد ينفك عنه.

٢- قوله في بداية موضوع (**كيف نزيل أسباب القلق؟**) : "لا أعرف مظلوما تواطأ الناس على هضمه كالحقيقة؛ ما أقل عارفيها، وما أقل – في أولئك العارفين – من يقدرها ويغالي بها ويعيش لها!"([2]). إنه ينعى على المجتمع البشري ندرة الباحثين عن الحقيقة والمستمسكين بها، وذلك في مطلع موضوع تشكل (الحقيقة) محوره، إذ يقوم علاج (القلق) فيه على استخلاص (الحقائق) وتحليلها واتخاذ قرار حاسم بشأنها. ويستخدم المؤلف

(١) جدد حياتك /٦.

(٢) السابق/٤٣.

صورة تعبيرية، تصور الحقيقة (مظلوما) من كافة البشر، ثم يصوغ الجملة التعجبية التالية لتكمل المضمون وتتم الصورة، (ما أقل عارفيها...) وبذلك يهجم علي لب القضية فيبرزها، ويضعها نصب العين من الجملة الأولي بلا مقدمات. وهو يكون بذلك (الكرة الملتهبة) التي تتجمع حولها الخيوط التالية لها، والتي تمد تلك الخيوط بحيويتها لأنها مشدودة إليها بقوة مثل هذه الجمل: "إن الأوهام والظنون هي التي تمرح في جنبات الأرض" و "لو ذهبت تبحث عن الحق في أغلب ما تري وتسمع لأعياك طلابه"(١)، وحديثه عن الصحف وزيفها، والعقائد الباطلة وخرافاتها والسياسة ودجلها"(٢). ثم يلجأ إلي (التنزيل العزيز) ليعتصم بالصدق في دنيا الزيغ ﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾ ﴾(٣).

٣- ومن البدايات التي تلخص المضمون قوله في بدء موضوع (عش في حدود يومك): "من أخطاء الإنسان أن ينوء في حاضره بأعباء مستقبله الطويل(٤) "ثم يأخذ في شرح تفاصيل ذلك الخطأ: " والمرء حين يؤمل ينطلق تفكيره في خط لا نهاية له، وما أسرع الوساوس والأوهام إلي اعتراض هذا التفكير المرسل..."(٥).

---

(١) جدد حياتك/٤٣.

(٢) السابق.

(٣) الأنعام/١١٦.

(٤) جدد حياتك/٢٢.

(٥) السابق.

٤- وربما تكون البداية (حكمة) تصف داءً اجتماعيا أو آفة إنسانية كقوله في (آفات الفراغ): "في أحضان البطاله تولد آلاف الرذائل وتختمر جراثيم التلاشي والفناء"(١). فهذه حكمة صيغت بدقة فالبطالة (أم) الرذائل، تلدها، وتحتضنها، وهي (بيئة) مناسبة (لاختمار) جراثيم التلاشي والضياع، وإذن فالعاطلون (قنبلة) رذائل مجتمعية، ومستنقع للأمراض المعدية الهادمة لكيان الأمة. ثم يرقى في تصعيد المعنى درجة" فإذا كان العمل رسالة الأحياء فإن العاطلين موتى"(٢).

٥- ويستعين بالأسلوب التصويري في بداياته ليقرب المضمون ويؤكده، من ذلك قوله في بدء موضوع (لا تدع التوافه تغلبك على أمرك): "تهيب الإنسان للكبائر يبعده عن مواقعتها، وينجيه من غوائلها، بيد أن المرء حين يخشى على حياته أن يتناول جرعة كبيرة من السم – لوضوح خطرها- قد يستهين بتناول أجزاء دقيقة منها..."(٣)، فهو يصور الكبائر بالسم المركز، والصغائر بالأجزاء الدقيقة من السم، يستهان بخطرها فتجتمع على المرء فتهلكه.

٦- ويوظف – في بعض بداياته- الإثارة التشويقية لجذب القارئ من الوهلة الأولى، مثل "كنت معجبا به، تسحرني كلماته وتزدهيني توجيهاته"(٤) فلا شك أن القارئ سيتساءل: من هذا الذي كنت معجبا به؟ ولأن محورالموضوع (استقلالية الذات ورفض التقليد) جاءت هذه البداية لتؤكد

(١) جدد حياتك/٥٤.
(٢) السابق.
(٣) السابق/٥٨.
(٤) السابق/١١٦.

تمسك المؤلف بتلك الاستقلالية وبذلك (التميز الذاتي)، فبالرغم من إعجابه بتلك الشخصية لم يحاول التشبه بها، أو الذوبان في نموذجها، لا لشيء إلا (لأن طبيعته– أي المؤلف – تغلبه)، فهو لا يحاول تكلف غير طباعه. وبذلك يقدم الدليل العملي على أهمية القضية وخطورتها، فالشخصية المشار إليها قوية التأثير شديدة الجذب، والشيخ يتحدث عنها بلقب (أستاذنا) ويذكر أنه عمل مدرسا ابتدائيا عشرين سنة، ومن خلال البحث في سيرة الشيخ وأساتذته يظهر أن تلك الشخصية هي الإمام **(حسن البنا)**. فعناصر توكيد المضمون هنا تتكون من: اختيار شخصية أستاذ ذي أبعاد تأثيرية متعددة، والإقرار بالإعجاب به، والاستجابة لكلماته، والانجذاب لتوجيهاته، ثم التأكيد على عدم محاولة تقليده، أو الذوبان في شخصه، وكل ذلك من العبارة الأولى في الموضوع.

وقد يستخدم المؤلف الصيغة الاستفهامية لإثارة القارئ ولفته إلى محور الموضوع كقوله: "إذا دهمتك شدة تخاف منها على كيانك كله فما عساك تصنع؟"(١) وهو مدخل للحديث عن خطة مواجهة الأزمات كطريق لإزالة القلق، وتضيف الصيغ الاستفهامية صور الخيارات المطروحة للحل" تدع الروع ينهب فؤادك، والعواصف الجائحة ترمي بك في مكان سحيق؟ أم تقف مطمئنا وتحاول أن تتلمس بين هذه الضوائق مأمنا، يهديك إليه الفكر الصائب؟"(٢). وبذلك يستعد القارئ لتلقي تفاصيل الخطة التي نقلها المؤلف عن (كرنيجي) بعد أن مهدت لها الاستفهامات المتتابعة. بذلك يتبين دور (المطلع) أو (الافتتاح الحاشد) في أسلوب الشيخ وطريقة عرضه للموضوعات.

---

(١) جدد حياتك/٢٦.

(٢) السابق.

٢] تآزر الأسلوبين الخبري والإنشائي في الإقناع والإمتاع:

يشكل المؤلف من نوعي الجملة (الخبرية والإنشائية) سياقا متكاملا يجمع بين عرض القضية والإقناع بها، من ذلك قوله تحت عنوان (لاتبك على فائت): "...فإن الألم إذا قيد النفوس بسلاسله الغلاظ ربطها في زمن يتحرك، فلم تحسن شيئا ولم تكسب خيرا. ما قيمة لطم الخدود وشق الجيوب على حظ فات أو غرم ناب؟ ما قيمة أن ينجذب المرء بأفكاره ومشاعره إلى حدث طواه الزمن ليزيد ألمه حرقة وقلبه لذعا؟ ...إن المرء ليس متهما في حرصه على مصلحته، فإذا ضاعت هذه المصلحة لسبب ما، خصوصا تلك التي تتصل بالآجال والأرزاق، فلنجعل من إيماننا بالله وقدره مايحجزنا عن التعلق بالأوهام والحماقات، وهذا ما نبه إليه القرآن الكريم بعد هزيمة أحد...﴿ ...قُل لَّوۡ كُنتُمۡ فِي بُيُوتِكُمۡ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَتۡلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمۡۖ...﴿١٥٤﴾﴾(١) فعلام هذا النعيب المسحوق؟ إن الطائرة تسقط من الجو بما فيها ومن فيها فإذا القدر الرائع يتكشف عن جثث محترقة وعن أطفال ورجال لم يمسسهم سوء! فلماذا لا نعترف بالقدر الأعلى فيما يقع؟ ونرد إليه ما يغلبنا على أمورنا ليكون من ذلك سلوى ورضى؟"(٢).

فالمؤلف يبدأ- في تعليقه على حدث الهزيمة في أحد – بتقدير خطورة الألم على النفوس ثم يستفهم إنكارا لندب الحظ والانحسار في الماضي، ثم يعود إلى تقرير أن القدر ماض لا محالة وأن الإيمان بقدر الله يحمي النفس من مهاوي الجزع، ثم يستفهم مرة أخرى منكرا صراخ التسخط الذي سماه (نعيبا)، ثم يعود للتقرير الخبري ليؤكد رحمة القدر الإلهي ودقته، بشاهد واقعي عصري فالنجاة

(١) آل عمران/١٥٤.

(٢) جدد حياتك/٨٤.

أو الهلاك من طائرة تهوي، لا تحكمه مهارة ولا خبرة إنما هو القدر وحده، الذي ينجي رضيعا من براثن طائرة مشتعلة، ولا ينفع معه إلا التسليم لمدبر الكون سبحانه، يؤكد الشيخ ذلك في صيغة استفهام يختم بها المقطع (فلماذا لا نعترف بالقدر الأعلى ونرد إليه ما يغلبنا على أمورنا؟) إذن فالأسلوب هنا قد ناوب بين التقرير والاستفهام ووظفهما معا لتوضيح الحقائق والإقناع بها، وهذا التلوين يدفع الملل ويجدد نشاط الذهن.

وفي موضوع (لا تنتظر الشكر من أحد) نراه يسجل ظاهرة (جحود النعمة) في البشر، فيقول: "...إننا نخال كل شيء مهيأ من تلقاء نفسه لخدمتنا...لا لعلة واضحة سوى أننا نريد...وقدنشعر ببعض الجميل لظروف مواتية، وعلى ما في هذا الشعور من نقص –لانقطاعه عن الله وسوء إدراكه لنعماه– فكم تظن من الناس يملكه هذا الشعور؟ قلة لا تذكر"(١). والاستفهام هنا يشرك المتلقي في السياق، بإدارة حوار افتراضي معه من بعد توضيح مستوى النعمة الإلهية وطريقة تعامل الإنسان معها.

وفي نقطة تالية ينتقل إلى جحود البشر ونكرانهم الجميل فيما بينهم، فينقل أن المسيح (عليه السلام) "شفى عشرة من المفلوجين في يوم واحد، فكم من أولئك المعافين سعى إلى رسول الله ليشكره؟ واحد فقط !!"(٢) وينقل عن (كرنيجي) أن قاضيا أنقذ ثمانية وسبعين رجلا من الإعدام "فكم من هؤلاء تقدم له بالشكر؟ لا أحد!!(٣). وفي المثالين السابقين يظهر دور الاستفهام بعد سوق الحقائق فهو يثير الشعور ويؤكد المضمون المراد.

---

(١) جدد حياتك/١٠٣.

(٢) السابق/١٠٤.

(٣) السابق/١٠٥.

ويزاوج المؤلف بين (التعجب، والاستفهام والتقرير) في بداية موضوعه (هل تستبدل مليون جنيه بما تملك؟) فيقول: "ما أكثر النعم التي بين أيدينا وإن غفلنا عنها! أقليل أن يخرج الإنسان من بيته وهو يهز يديه كلتيهما ويمشي على الأرض بخطوات ثابتة ويملأصدره بالهواء في أنفاس رتيبة عميقة، ويمد بصره إلى آفاق الكون فتتفتح عيناه على الأشعة المنسابة وتلتقط أذنه ما يموج به العالم من حراك الحياة والأحياء؟ إن هذه العافية التي تمرح في سعتها وتستمتع بحريتها ليست شيئا قليلا"([1]).

فالتعجب في البدء يثير القضية، والاستفهام بجملته التي طالت حتى بلغت ثلاثة أسطر يقدم الدليل بشرح مجالات النعم وتفصيل مناحيها، صحة وعافية وسمعا وبصرا، ثم يجيء التقرير فيؤكد المضمون بذكر (العافية) التي (يمرح) المرء في (سعتها) فهي ليست نعما محدودة بل سابغة ممتدة.

ويتعاون (الاستفهام والتقرير مع الطباق وسوق المثل) على تحقيق قوة إقناعية ضاغطة لا فكاك للمتلقي من أسرها في قول المؤلف – وهو يتحدث عن تحويل الصبر إلى رضا–: "وأول ما يطلبه الإسلام منك أن تتهم مشاعرك حيال ما ينزل بك، فمن يدري؟ رب ضارة نافعة، صحت الأجسام بالعلل، رب محنة في طيها منحة، من يدري؟ ربما كانت المتاعب التي تعانيها بابا إلى خير مجهول، ولئن أحسنّا التصرف فيها لنحن حريون بالنفاذ منها إلى مستقبل أطيب (وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم)"([2]).

وفي معالجته لقضية الإيمان والإلحاد يقرر أنه "كلما ظهرت في الدعاء آثار لإجلال الله والاعتراف بعظمته المفردة وكماله المطلق كان ذلك أقرب إلى

(١) جدد حياتك /١١٠.

(٢) السابق/١٢٥. والآية الكريمة من سورة البقرة /٢١٦.

القبول وأدنى إلى الاستجابة، روي أن الرسول (ﷺ) سمع رجلا يقول: اللهم إني أسألك بأني أشهد أنك أنت الله لا إله إلا أنت الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد، فقال النبي للرجل: لقد دعوت الله بالاسم الأعظم الذي إذا سئل به أعطى وإذا دعي به أجاب"(١). ثم يعلق الشيخ لتوكيد المضمون السابق مستخدما الاستفهام التقريري فيقول: "أجل، ألا ترى الرجل قد اضطرمت في نفسه عقيدة ضلت عنها ألوف مؤلفة من الناس؟ أين من التنزيه الذي يملأ فؤاده شرك جماهير تحسب أن لله ابنا وأن له صاحبة؟"(٢) فهذا الاستفهام يشرح بوضوح سبب قرب الإجابة من دعاء ذلك الرجل، وقد عبرت (اضطرمت) عن مستوى الانفعال بتوحيد ذي الجلال وتعظيمه عند الرجل، كما أوحت (ألوف مؤلفة) بتفرد ذلك الرجل وتميزه بما امتدحه به الصادق المصدوق (ﷺ).

وفي الموضوع ذاته تتعاقب صيغ الخبر والإنشاء في شرح الشيخ لضرورة الصلاة للكائن البشري، يقول: "هل ندع نفوس الناس تنساب في فجاج الحياة وحدها وتتوغل في متاهاتها دون مولى يرعاها ودون نصير يعضدها؟ إن الإنسان مهما ادعى القوة فهو معرض للمرض والضعف، ومهما انفرد بنفسه تكتنفه الوحشة والحيرة وما أكثر المسارب والمتشعبات التي يصل المرء إليها ثم لا يدري: أيها يأخذ؟ وأيها يترك؟ ...ما أفقرنا إلى من يلهمنا الصواب ويهدينا إلى الحق كلما اشتبهت علينا الأمور! والإنسان معرض للآلام من كل ناحية فيه، إنه كمدينة مفتوحة يمكن أن تدك في أي وقت ومن أي جهة...ما أفقرنا إلى

(١) جدد حياتك /١٥٦. والحديث في مسند الإمام أحمد، تحقيق شعيب الأرنؤوط وآخرين، جـ٣٨/ ٦٤، ط١ مؤسسة الرسالة، ١٤٢١هـ.

(٢) السابق.

استدامة النعمة واتقاء النقمة والاسترواح إلى ما يجعل الله في الحياة من يسر وبركة وسكينة !إن هذا كله هو ما تكفله الصلاة للمؤمن"([1]).

ويستخدم المؤلف (السؤال الافتراضي) لشرح أثر (صلاة الغداة) على الإنسان، يقول: "أي خير يكسبه الإنسان إذا استيقظ من نومه فكان أول تفكيره الاتصال بربه والاستعانة به والاستمداد منه؟ إنه ينال ضمانا من السماء أن يقضي سحابة نهاره وهو في حرز منيع"([2]). فالسؤال والجملة التقريرية التي جاءت إجابة له يكونان (حوارا تخيليا) بين المؤلف والقارئ يؤكد المضمون ويرسخه.

وفي معرض الحديث عن محاسبة النفس يعقد المؤلف مقارنة بين (إعمار البيت) و (بناء النفس) في صيغة استفهامية تبرز بوضوح خطر (تربية النفوس) وحاجتها إلى طول المعالجة ودقة المتابعة، يقول: "والحق أن ترويض النفس على الكمال والخير وفطامها عن الضلال والشر يحتاج إلى طول رقابة وطول حساب. إن عمارة دار جديدة على أنقاض دار خربة لا يتم طفرة، ولا يتم عن ارتجال وإهمال، فكيف ببناء نفس وإنشاء مستقبل؟ أترى ذلك يتم وليد غفلة وذهول؟ كلا، لابد من حساب دقيق قائم على الكتابة والمقارنة والإحصاء واليقظة([3])".

والملاحظة الواضحة على غالب صيغ الاستفهام المتبوعة أو المسبوقة بصيغ تقريرية مرتبطة بها، أنها تمثل أداة الاتصال الحواري المفترض بين

(١) جدد حياتك/١٥٧.
(٢) السابق/١٥٩.
(٣) السابق/١٨٦.

الكاتب والقارئ، ذلك الاتصال الذي يكسب السياق حيوية وفعالية وينفي عنه الرتابة والملل.

٣] دقة توظيف الصورة البيانية:

تمثل الصورة البيانية عند الكاتب الأداة الشفافة لإيصال المضمون في أقوى وأوضح هيئة، وتوظيفها يعني أنها تصبح عنصرا أساسيا في تشكيل الأسلوب، بحيث ينهار إذا بدلت الصورة أو حذف بعض أجزائها، ومن الأمثلة على ذلك قوله: "ونحن نستطيع أن نصنع من أنفسنا مثلا رائعة إذا أردنا، وسبيلنا إلى ذلك تجديد أفكارنا ومشاعرنا كما تتجدد الرقعة من الصحراء إذا انضاف إليها مقدار من المخصبات والمياه"(١). فاختار الصحراء نموذجا للتغيير والتجديد والمخصبات والمياه عنصرا محولا يمثل الأفكار الجديدة التي يعايشها ويقتنع بها ويتبناها من يهدف إلى تطوير ذاته، وتشكيل الصورة على هذا النحو قرب المعنى وأقنع به القارئ، ولو ظل المضمون تقريريا خاليا من الصورة لبقي موضع شك، فإن من الصعب أن تقنع المفعم بالتعاسة والإحباط بأنه يمكن أن يصبح سعيدا ناجحا.

وفي موضوع (بين الإيمان والإلحاد) يعبر الشيخ عن ضيقه بانتشار فكرة الإلحاد في المجتمع بين الشباب يقول: "لقيت نفرا من الشبان الملحدين – وهم للأسف منتشرون في هذه الأيام انتشار الحلفاء والحشائش الضارة في أرض لا صاحب لها..."(٢). إن اختيار عناصر الصورة التشبيهية هنا في غاية الدقة (فالحشائش الضارة والحلفاء) نموذج قريب لكل مصري يعرف أهمية (تنقية الحشائش) من الأرض الزراعية، كما أن من خصائص تلك الحشائش أنها تنمو

(١) جدد حياتك/٨٩.
(٢) نفسه/١٤٦.

مختلطة بعيدان المحصول نتيجة عدم انتقاء البذور وغربلتها، كما أنها سريعة النمو ربما تغلب بمظهرها إذا لم تقاوم- على المحصول الأصلي فتصبح الأرض مزروعة حشائش لا قمحا مثلا..وكل هذه المعاني مختزنة في الصورة المنتقاة لتعبر عن تفشي فكرة (الإلحاد) الغريبة عن مجتمعنا والشاذة عن فكره ذي العمق الديني وأن السبب في ذلك إهمال أولي الأمر بذور هذا الإلحاد وترك الشباب ينخدعون بإفك الأفاكين دون تمحيص وغربلة، والتعبير بـ (أرض لا صاحب لها) ينم عن انتقاد حاد من الشيخ لأصحاب هذه الأرض وتعييرهم بالفشل الذي منيت به زراعتهم بسبب الغفلة أو الكسل أو الثقة بمورّد بذور منعدم الضمير، يستورد بذور الإلحاد من الغرب. ونشعر باللوعة تعتصر الشيخ وهو يقول (لا صاحب لها!) إذ لا شك أنه يعد نفسه من أصحاب هذه (الأرض) المهملة وذلك (المحصول) الضائع المهدر. ولولا الصورة التشبيهية الدقيقة هنا ما استطعنا استدعاء كل هذه المضامين.

ونجد أنفسنا أمام صورة أخرى حين يكمل الشيخ حديثه عن أولئك الشبان الملحدين فيقول: "وحاورت بعضهم أبغي استكشاف ما في نفسه فوجدت فكرتهم عن الله أشبه بفكرة اللقيط عن أبيه، لا يعرفه ولا ينصفه!"، وجملة (لا يعرفه ولا ينصفه) ضرورية في تحديد وجه الشبه، فهؤلاء الفتية الملحدون قد أضلهم المفسدون وسمموا عقولهم، بعد أن خلقهم ربهم (ﷻ) وأكرمهم وسواهم، وربما كان التعبير بـ(الوليد المخطوف من أبيه) أقرب من (اللقيط) الذي ينكره أبوه ويتخلى عنه.

وفي حديث المؤلف عن قدرة أصحاب الهمم العالية على تحويل متاعب الحياة إلى مكاسب، نراه يصور تلك القدرة فيقول: وكما يفرز الجسم عصارة معينة لمقاومة الجراثيم الهاجمة يفرز هؤلاء معاني خاصة تمتزج بأحوال الحياة

وأغيارها فتعطيها موضوعا وعنوانا جديدين، واسمع إلى ابن تيمية وهو يقول- مستهينا بتنكيل خصومه-: إن سجني خلوة ونفيي سياحة وقتلي شهادة"(١). وهذه (العصارة المعنوية المناعية) إنما تتكون لدى النفوس التي تصقلها التجارب والمحن، فتكون رصيدا تحتمي به في الأزمات.

وفي تصويره لمستويات الرقي النفسي يقول: "للنفوس المعتادة لحظات تصفو فيها من كدر وترق من غلظة...لكنها لا تلبث حتى تهبط إلى أفقها الداني، لتعيش فيه أكثر وقتها، ولترمق سويعات الكمال التي تعتريها وكأنها ألق عارض أو معنى نضح من عالم بعيد. وللنفوس العظيمة مجال أرحب مدى وأطول امتدادا، تشرف فيه على الحياة ولها فكر أوعى وشعور أقوى، وتستقيم على نهج من السلوك الرفيع قلما تزل عنه، فهي كالطير الذي ألف الذرا لا ينحط عنها إلا لماما، وإذا هبط فما يبقى إلا ريثما يرفرف بجناحيه صعدا إلى حيث يعيش"(٢).

فالصورة الأولى لعامة الناس الذين تثقلهم أوهاق الطين واللحم والدم، والثانية للخاصة، والتوصيف السابق على الصورة ممهد لها (فالمدى الأرحب) و(الامتداد الأطول) و(الإشراف من عل) من خصائص (أهل الذرا) و(الطير ذو الأجنحة) يناسب (أهل العلا) المؤهلين للقمم بخصائصهم النفسية، المستعدين (للتحليق) دائما.

ثم يرقى التصوير درجة إلى خاصة الخاصة، الرسل الكرام (عليهم السلام) فهم "مستخلصون من أجيال الدنيا كما تستخلص أطايب البستان النضر في هدية مستحبة، قد يترك فيها الجميل إلى ما هو أجمل"(٣).

---

(١) جدد حياتك/١٢٧.

(٢) السابق/ ١٦٥.

(٣) السابق/١٦٦.

ثم يصل الفن التصويري إلى قمته ذلك حين يقول الشيخ عن سيد الأولين والآخرين (ﷺ): "ولن يخطئك وأنت ترمق سدنة هذا الوحي المبارك أن تستجلى هامة شماء توجها الجلال والأدب، وزانها اليقين والصدق، برزت بين هداة السماء بروزا يكاد يحجب ما حوله...إنه المثل العليا كلها في إطار من اللحم والدم..."(١) وهذا تصوير يجمع بين التجريد والتجسيم في آن واحد، يجسم المثل في شخص النبي الأكرم، ويمثل شخصه الكريم باقة من المثل والقيم.

وإذا كان المؤلف قد عرض فيما سبق تصويرا لأهل الدرجات العلا فإنه في مقام آخر قد تناول بالتصوير أصحاب الدركات الدنى في الهمم والأعمال، يقول عمن يتنكبون طريق الهدى: "فالإنسان الذي يؤثر طريق الرياء على طريق الإخلاص يلقى من العنت ما يلقاه رجل يدور حول نفسه ليصل من القاهرة إلى الإسكندرية، سيظل يتحرك في موضعه حتى ينقطع إعياء دون أن يبلغ هدفه، والإنسان الذي يؤثر الزنا على الإحصان يدركه من الشقاء ما يدرك الكلب الضال حين يتسكع لاختطاف طعامه فيقع على جسمه من الضربات أكثر مما يدخل فمه من المضغ المنهوبة"(٢). فالصورة الأولى تجسيم دقيق لمعنى الضلال والشقاء الذين نفاهما الحق -سبحانه- عن المؤمنين في قوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ... ﴿١٢٣﴾﴾(٣)، واختيار (الكلب الضال المتسكع المختطف للطعام المتعرض للضربات واللكزات) تمثيل حي متحرك للبائس الذي يفضل حانات الفسقة على رحبات بيته، ومراتع الداعرين على ما

(١) جدد حياتك.
(٢) السابق/٧٨.
(٣) طه/١٢٣.

أحل الله له فلا ينال إلا الهوان والضياع، حيث يضحى به في أول فرصة، ويرمى به في أول مزبلة، بعد أن ينفد ماله وتنهار قوته ويذهب شبابه.

إن تعاليم القرآن تحمي الكائن البشري من الشرود والضياع لأنها –كما يقول المؤلف–: "تدفع بالسلوك في مجرى معين وتمنعه أن يسيح هنا وهناك كما تمنع الشطآن القائمة لجج الماء أن تسيل كيف تشاء"(١). وما أقرب هذه الصورة مما جاء في الحديث النبوي "ضرب الله مثلا صراطا مستقيما وعلى جنبتي الصراط سوران فيهما أبواب مفتحة، وعلى الأبواب ستور مرخاة، وعلى باب الصراط داع يقول: أيها الناس، ادخلوا الصراط جميعا ولا تتعرجوا...وذلك الداعي على رأس الصراط كتاب الله..."(٢).

٤] براعة الاستدلال المنطقي ودقة الاستشهاد النصي:-

يستخدم المؤلف الاستدلال المنطقي كما يوظف الشواهد النصية لإقناع القارئ بما يعرض من قضايا، ففي حديثه عن العلاقة بين التوكل والأخذ بالأسباب يقول: "إن الإسلام يرفض كل تشكيك في حرية الإرادة، ويرد بعنف كل توهين للطاقة العظيمة التي منحها الإنسان كيما يكدح في هذه الدنيا ويرتقب نتائج كدحه، غير أننا عندما ننظر إلى شؤوننا على ضوء الواقع لن يفوتنا أن نلحظ ضيق الدائرة التي نعمل فيها بقدرتنا وإرادتنا بالقياس إلى الدائرة الواسعة التي تعمل فيها القدرة العليا...، والأسباب التي نتعلق بها محكومة بمجالات رحبة لا سلطان لنا عليهافي أغلب الأحيان، ومن ثم فلنكفكف غرورنا بما نملك، ولا نحاول بنفخ الفم أن نغالب عصف الرياح"(٣).

---

(١) جدد حياتك/٧٩.

(٢) مسند الإمام أحمد، جـ٢٩/١٨٢.

(٣) جدد حياتك/١٥١.

فتقسيم المؤلف الكون المحيط بالإنسان إلى دوائر وبيان صغر مساحة الدائرة التي يتحكم فيها اختيار البشروضخامة وشمول دائرة القدرة الإلهية..ذلك التقسيم وسيلة منطقية صيغت بشكل فني لتقنع القارئ بالمساحة المتاح له الاختيار فيها وعلاقتها بماهو مسير فيه، وقد تدخلت الصياغة الفنية في تجلية المضمون بتلك الصورة الساخرة التي يظهر فيها الكائن البشري يحاول مغالبة عصف الرياح بنفخة من فمه.

وفي معالجة المؤلف لقضية العلاقة بين استظهار النصوص الشرعية، وبين صلاحية صاحبها لحمل الرسالة يوضح "...أن كثرة البضاعة من نصوص السماء لاتغني فتيلا في نفع صاحبها...إذا كان ملتاث الطبيعة مريض الفطرة ! ما قيمة المنظار المقرب أو المكبرلدى امرئ فقد بصره؟"،([1]) والاستفهام الأخير يحمل السخرية مستخدما الأسلوب التصويري، وهوبعد ذلك إقناع منطقي بالقضية المعروضة.

وفي معالجته لقضية (التخلخل والاضطراب في تصور الدين والتناسق المطلوب بين أجزائه) نرى المؤلف يستعين بالرسم التخيلي التجسيمي لإقناع القارئ بضرورة فهم كل عنصر أو ملمح من ملامح الدين في إطاره الصحيح ووزنه النسبي الذي حدده الشارع، يقول: "وللدين صورة متسقة تنتظم فيها الملامح والمشاعر، والنسب والأضواء، ولهذه الصورة وضع واحد، يبرز فيها الرأس وهو عال، وتبدو فيها الحواس والأطراف كل في مكانه العتيد لا يعدوه إلى غيره، وصاحب الفطرة السليمة وحده هو الذي تستقر في ذهنه صورة الدين على هذا النحو المبين، أما مع اضطراب البصيرة وفساد الذوق فإنك ستجد من يعرض عليك الدين مشوها يتجاور فيه الرأس والقدم،...إن هذه الفوضى في فقه

(١) جدد حياتك/٨.

النصوص ليست إلا ضربا من تحريف الكلم عن مواضعه"(١). فهذا الرسم التخيلي المجسم للدين صورة من صور الإقناع المنطقي.

ويدلل على ضرورة التلازم بين تحمل رسالة الإسلام والالتزام العملي بها بدليل منطقي تربوي يفصل بين (المقدرة النظرية) على فهم (المحتوى التربوي الديني) ونقله، وبين القدرة على طبع النفوس عليه عمليا بالممارسة والمعايشة اللذين يحكمهما(الالتزام الفعلي) وهو (القدوة) يقول الشيخ: "فإن تفاصيل الخير وأساليب الانطباع به والمران عليه لا يحسن تصورها ولا تصويرها إلا رجال لهم في تربية أنفسهم باع طويل أو قصير"(٢)

وكما تميز أسلوب الكاتب بقوة الاستدلال المنطقي برزت الشواهد النصية مؤيدة لما يعرض من قضايا، موضوعة في مكانها من السياق بدقة، حتى ليكاد يصبح بعضها جزءا من النسق الأسلوبي، بفن يشبه إلى حد كبير فن التطعيم بالجواهر، ذلك الذي يجعل من الجوهرة جزءا من التشكيل العام للوحة أو القطعة الفنية، فكذلك يكون النص داخل السياق، يأتي في موضعه الدقيق، مقنعا، مشبعا، ممتعا، في وقت معا.

ومن الأمثلة على ذلك قول المؤلف (رحمه الله): "سعادة الإنسان أو شقاوته وقلقه أو سكينته تنبع من نفسه وحدها، إنه هو الذي يعطي الحياة لونها البهيج أو المقبض كما يتلون السائل بلون الإناء الذي يحتويه (فمن رضي فله الرضا ومن سخط فله السخط)"(٣). ومعلوم أن العبارة الأخيرة جزء من حديث نبوي كريم،

---

(١) جدد حياتك /٩.

(٢) السابق/١١.

(٣) نفسه/٨٧. والحديث في سنن الترمذي، تحقيق إبراهيم عطوة، ج١٠٦/٤، ط٢، مطبعة مصطفى الحلبي سنة ١٩٧٥.

جاءت في السياق دون تقديم بما يقدم به النص النبوي {مثل روي، أو قال (ﷺ)} فقد طوي ذلك كله طيا، كما حذف من النص الأصلي غالبه و اجتزئت منه العبارة المطلوبة بدقة، لتوضع في مكانها فتتم المعنى وتؤكده في وقت معا، أما إتمامها للمعنى فكأنه قال: (كما يتلون السائل بلون الإناء الذي يحتويه بياضا أو سوادا) وأما تأكيدها له فبكونها نصا نبويا، ثم بتحويلها الحديث من السائل والإناء ولونهما إلى الرضا والسخط وعاقبتهما، ففي السياق تلوين وانتقال، وحذف جزء وإتمام بجزء آخر، وهي تقنية أسلوبية يكثر المؤلف من استخدامها بجمال ودقة. ومن ذلك قول الشيخ: "إن هذه الحياة الممتازة الراقية تكريم خاص ينبغي أن نعتز به وأن نبصر حق الله فيه ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾(١)، والله قد منحنا الحواس المعروفة لنتجاوب مع الوجود ونتعرف ما فيه، ونتذوق بملكاتنا المادية والأدبية جماله وقواه، حتى إذا غمرنا هذا العطاء المفاض من كل ناحية اهتزت مشاعرنا شكرا للذي أحيانا وأكرمنا ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾"(٢).

ومنه قوله في موضوع (كن عصيا على النقد) في حديثه عن طبيعة المؤمن القوي – وتكاد تلمح أن الشيخ هنا يترجم لنفسه ويتحدث عن طبيعته الذاتية– يقول: "تلك طبيعة الإيمان إذا تغلغل واستمكن، إنه يضفي على صاحبه

(١) البقرة/٢٨.

(٢) النحل/٧٨، وينظر: جدد حياتك /١١٢.

قوة تنطبع في سلوكه كله فإذا تكلم كان واثقا من قوله، وإذا اشتغل كان راسخا في عمله، وإذا اتجه كان واضحا في هدفه وما دام مطمئنا إلى الفكرة التي تملأ عقله وإلى العاطفة التي تعمر قلبه فقلما يعرف التردد سبيلا إلى نفسه وقلما تزحزحه العواصف العاتية عن موقفه، بـــل لا عليه أن يقول لمن حوله ﴿ ...ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنِّي عَٰمِلٞۖ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ٣٩ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيۡهِ عَذَابٞ مُّقِيمٌ ٤٠ ﴾(١) فقد جاءت الآية الكريمة تنطق بدلا من أن ينطق ذلك المؤمن بكلام من عنده، جاءت لتعضده وتؤازره وتعلن معه التحدي لكل مبطل معاند، جاءت لتؤكد مضمون ما سبقها وتكون كالتوقيع عليه والإمضاء له وإعطائه ما يمكن تسميته بـــ (البصمة القرآنية).

وكما أن للنص النثري موضعه الدقيق من الاستشهاد في أسلوب المؤلـــف كذلك للنص الشعري موضعه استئناسا وتتميما للمـــضمون وإضـــفاء لمـــسحة شعورية تلطف الجو الفكري الجاف، من ذلك قوله يشير إلى أن ضـــيق الحيـــاة سببه جشع الناس وتنازعهم: "كذلك الحياة الدنيا، والله ما أفسدها وكسف ضياءها وشاب نعماءها إلا ركض البشر في جوانبها ركضا مجنونا لا يخـــضع لـــشرائع الله ولا يستقيم مع نهجه وهداه

لعمرك ماضاقت بلاد بأهلها * ولكن أخلاق الرجال تضيق"(٢)

وإفصاحا عن رؤيته في الحياة ورسالته بين الناس وغايته من الكتابة، نراه يتمثل بهذين البيتين:

---

(١) الزمر/٣٩ –٤٠. وينظر: جدد حياتك /١٧٧.

(٢) السابق/١١٢. والبيت لعمرو بن الأهتم كما فـــي: المفـــضليات، تحقيـــق أحمـــد شـــاكر وعبد السلام هارون، ج١/١٢٧، ط٦. دار المعارف، القاهرة.

وكذا العهـــــــد بمشبوب القلى * عارم الفطنة جياش الفـــــــــؤاد

أبدا يهتـــــف بالقـــــــول فلا * يعجب الغـــي ولا يرضـــي الرشـــاد

ثم يعقب مستدركا "إن مالا يعجب الغي يجب أن يرتضيه الراشدون"(١).

والبيتان يرسمان صورة متفرد في ميدانه، آخذ بعنان فرسه، جاهز للنزال، صادع بالحق وإن تكاثفت ظلمات الباطل، مستمسك به وإن قل النصير ونضبت منابع الخير في النفوس، يؤكد ذلك قوله يتمثل بابتهال الخليل إبراهيم (عليه السلام) إلى ربه –: "وإذا استوحشت من صنوف الناس فإلى رب الناس المفزع (رب هـب لي حكما وألحقني بالصالحين واجعل لي لسان صدق في الآخرين واجعلني مـن ورثة جنة النعيم"(٢).

٥] متانة السبك ودقة الصياغة في الاستنتاجات والتعليقات: -

يتسم أسلوب المؤلف – حين يعالج الظواهر النفسية أو الأدواء الاجتماعيـة ويأخذ في تحليلها– يتسم بالقوة والدقة، وتكاد عباراتـه تقتـرب مـن نمـوذج (الحكمة) بإيجازها ودقتها، من ذلك حديثـه عـن (تجـاوز النفـوس الكبيـرة للمصاعب) في موضوع (حياتك من صنع أفكارك) إذيذكر البيتين التاليين(٣):

وإلا يكـــن عظمي طويلا فإنني * له بالخـصال الـصالحات وصـول

إذا كنت في القوم الطوال علوتهم * بعارفـــة حتـــى يقـــال: طويـــل!

---

(١) نفسه/١٤، والبيتان للعقاد من قصيدته (ترجمة شـيطان)، ينظـر لـه: (ديـوان مـن دواوين)/١٩٣، ط١، دار نهضة مصر، ١٩٩٦.

(٢) جدد حياتك/١٤ والآيات من سورة الشعراء /٨٣–٨٥.

(٣) البيتان في شرح ديوان الحماسة لأبي على المرزوقـي، منـسوبان لأحـد الفـزاريين، ج١/٨٣٠، تحقيق غريد الشيخ، ط١، دار الكتب العلمية.

ثم يعلق قـــائلا: "إن الأحوال النفسية الحية تجعل القليـــل كثيـــرا والواحـــد أمة"([1])، وفي تحليله لعوامل (اكتمال الخصائص النفسية الفاضلة) نراه يؤكـــد أن هذا الاكتمال "لا يتم طفرة ولا ينشأ اتفاقا بل هو نتيجـــة سلـــسلة مـــن الجهـــود المتلاحقة والبرامج المدروسة والإشراف الدقيق"([2]).

ثم يشرح كيف تكون تلك الجهود والبرامج (الخصائص الفاضلة) فيقـــول: "إن الملكات العظيمة تكمن في النفس كمون الجمال والعذوبـــة والحلـــوى فـــي البذور والبراعم، وكما تتضافر الحرارة والمياه وضروب العناية على استخراج أطايب الثمر من هذه الأصول المطوية الضامرة تتضافر عناصر البيئة الصالحة والتربية الراشدة على تفتيق المواهب العليا في الإنسان، وإنضاج ما يولـــد فجـــا في أيام الطفولة...حتى يبلغ مداه"([3]). وفي مجال (ثبات صاحب الإيمان العميـــق أمام وساوس الشيطان) يقول: "الإسلام – في عالم النفس – جمال ينفـــي القـــبح ونظام يطارد الفوضى، والعظمة الحقيقية أن يستقر المرء في دخيلة نفسه علـــى حال من السكينة واليقين ييأس معها الشيطان أن يقذف في روعـــه بنكـــر"([4])، ويتحول إلى اللغة التصويرية ليعلل ما ساقه تقريرا" انظر إلى الريح العاصـــف، إنه يهب على الصحراء فيثير فيها الغبار ويهب على المـــاء فيغـــضن وجهـــه ويحرك لججه، ولكنه يناوش الجبال الشم فلا ينال منها منالا"([5]).

---

(١) جدد حياتك/٨٨.

(٢) السابق/١٤٢.

(٣) جدد حياتك/١٤٢.

(٤) نفسه.

(٥) نفسه.

والدقة في هذين النصين تتضح في طريقة التفصيل واختيار الألفاظ، ففي شرحه لمعالم الوقاية النفسية في التربية الإسلامية يبين أهمية (النقاء)، فالجمال (يطارد) القبح، و(النظام) لا يدع مجالا (لفوضى) المشاعر أوالأفكار، ثم إنه حين ينتقل إلى التصوير يقسم المناظر الطبيعية فيرينا إثارة الرياح لرمال الصحراء، وتغضينها وجه الماء ثم يصف الجبال (بالشم) وهي المقابل للنفوس المؤمنة الراسخة في يقينها. وفي موضوع (روحانية الرسول) يبين كيف كشف النبي الكريم منابع الخير في نفوس أصحابه ووظفها، يقول: "إن من خصائص القيادات الروحية الكبرى أنها تقدح زناد النشاط الإنساني فيمن اقترب منها وتطلق قواه الكامنة ليخدم الحقيقة الكبرى في حدود ما أوتي"(١). وكأني به وهو يوصّف (القيادات الروحية) ويذكر خصائصها يلمح من طرف خفي إلى دور تلك القيادات في كل جيل، وتعبير (تقدح زناد النشاط) يوحي بإشعال الخامد وتحريك الهامد واستفراغ الجهد في استخراج مكنون العبقرية والطاقة لدى الأتباع، ووصف الحقيقة ب(الكبرى) إعظام لأمر الرسالة، وإكبار للقائمين عليها، فهي (حقيقة) في عالم مليء بالزيف، وهي (الكبرى) تتصاغر إلى جانبها حقائق جزئية ربما اختلطت ببعض الباطل، أو كسف نورها ببعض الغموض، والحقيقة الكبرى هنا هي الإسلام، بوضوحه ووضاءته وجلاله وشموله وتوازنه، وتوضيحه للعلاقة بين الإنسان وبين الكون من حوله، وبينه وبين خالقه وهاديه سبحانه.

وإذا كان أسلوب الشيخ في توصيفه لمجالات عظمة النفس ومناحي اكتمالها دقيقا جامعا فإنه في مجال النقد للمظاهر السلبية والأدواء الاجتماعية يصبح حادا لاذعا، انظر إلى قوله وهو يعالج شيوع الجحود وندرة الإنصاف: "وإنه ليخيل

(١) جدد حياتك /١٦٧.

إلي أن العداوة أزلية بين الأمجاد والأوغاد، بين أصحاب المواهب والمحرومين منها، بين فاعلي الخير والعاطلين عنه، وأخيرا بين من نحسن إليهم وبين من يستكثرون علينا أن نكون في مكان يجيئهم منه إحساننا، ويدر عليهم خيرنا"([1]).

فالتقابل بين (الأمجاد) و(الأوغاد) وبين (فاعلي الخير) و(العاطلين عنه) يوحي بمستوى الحدة ومدى الالتهاب الشعوري، ولعل لبعض مواقف الجحود التي قوبل بها الشيخ ممن تعامل معهم دخلا في ذلك، ويفسر ذلك قوله: "وإنني بعد ما بلوت الناس أجدني مضطرا لأن أقول: محض عملك لله، وانشد ثوابه وحده، ولا تنتظر أن يشكرك أحد من الناس، بل توقع أن يضيق الناس بك وأن يحقدوا عليك"([2]).

وفي معالجته لداء الأثرة يقول: "إن حب الذات والعيش في إفرازاتها – ولو كانت حريرا كالذي تفرزه دودة القز –منته حتما بالاختناق...والأنانيون في كل مجتمع لعنة ماحقة تحترق في سعيرها الفضائل والمصالح، وتذوب في مرضاتها الأفراد والجماعات"([3]). واستدعاء رمز(حريردودة القز) يوحي بمدى اغترار الإنسان بما تزينه له أنانيته، ومدى نعومة وخداع ما تقدمه من أماني، والتعبير ب(لعنة ماحقة) مع لفظة (سعيرها) يرسم بعدين، نفسي تربوي، واجتماعي أخلاقي، ويجمع بين (الانهيار) و (الاحتراق)، والفعل (تذوب) يصور الأنانية سيلا من (الأحماض والقلويات) يكتسح في طريقه كل ما لا يراه الأناني المتغطرس في مصلحته الذاتية. ويرجع المؤلف معاناتنا الاجتماعية إلى هذه الأثرة، يقول: "ولن يخطئك– و أنت تلمح مسالك الناس – أن ترى طغيان

(١) جدد حياتك /١٠٨.
(٢) السابق/١٠٧.
(٣) السابق/١٣٠.

الذات – لا حب الذات– كامنا وراء كثير من الأعمال والأحوال، وإن اجتهد أصحابها في إلباسها صورا بعيدة عن الريبة والجور، والاضطراب الاجتماعي الذي نعانيه إنما ينبع من هذه العين الحمئة"(١).

والتعبير بـ(طغيان الذات) يوحي بمدى التسلط الذي يمارسه الأناني على من حوله، و(العين الحمئة) تعبير قرآني، وهو يلمح إلى تكون تلك الصفة في مدى زمني وعوامل بيئية وثقافية تسمح أولا بـ (الإحساس بالذات) وتعاظمها، ثم بـ (طغيان الذات) المؤدي إلى التسلط والعدوان وانتهاب الحقوق، كما تتكون الحمأة من ماء وحرارة وطين، تختلط زمنا طويلا حتى تتعفن، والسر الأصيل في تكونها (الخمود والركود). ويوضح المؤلف أثر علة (الأنانية) على الدين ومضامينه فيقول: "والأنانيون عندما يسلطون أفكارهم الضيقة على الدين يمسخون نصوصه، ويحرفون الكلم عن مواضعه، فهم يفهمونه ثوابا بلا عمل، وثمرة بلا غرس أو عقابا يقع على الآخرين وحدهم، هيهات أن يمسهم منه لفح"(٢).

والشيخ يرصد هنا أثر العوج النفسي على الرؤية والفهم للنصوص بل والأشياء، فصاحب الهوى إنما يرى بعين هواه، والحقيقة عنده ما يزينه ذلك الهوى، وإن خالف مفهوم النص لغة وشرعا، وقد وضع المؤلف في هذا التحليل أيدينا على أحد أسرار (الجزئية والاختزال) في تصور قواعد الدين وأحكامه.

ويقدم الشيخ نموذجا حيا لأحد المعلولين بحب الذات ويشرح بذلك النموذج كيف يريد ذلك الأناني قطف الثمار بلا غراس، يقول: "سألني بعضهم: أليس

---

(١) جدد حياتك/١٣٦، و(العين الحمئة: ذات الحمأ وهو الطين الأسود المنتن، (لسان العرب:ح م ا).

(٢) السابق/١٣٧.

مصيرنا الجنة نحن المسلمين مصداق قول النبي (ﷺ) "من قال لا إله إلا الله دخل الجنة!؟"، فنظرت إليه وقدرت المسافة بين عمله وأمله فوجدتها بعيدة بعيدة، ورأيت أنه لا يحفظ من الإسلام إلا ما يظنه عونا على كسله، كالمتسول الذي تغيب عن ذهنه آيات القرآن كلها فلا يعي منها إلا آية واحدة: "من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها"، فهو يقرأ الآية ليستدر بها الأكف ويجمع بها الأموال"(١).

إن تحمل رسالة الإسلام والشعور بالمسؤولية عنها كان ملازما للشيخ مؤرقا له، وإن شدة غيرته على حمى الدين جعله شديد الحساسية تجاه كل عوج في فهمه، أو قصور في استيعابه، أواجتزاء لنصوصه، أو افتراء عليه، أوأثرة وانتهازية في التعامل معه تنسى معها الواجبات، ويلحف– دون استحقاق – في طلب الجوائز والهبات.

من هنا نفسر تلك النظرة المتسائلة المتعجبة من الشيخ تجاه ذلك السائل، وذلك الحوار الداخلي الذي انعقد في نفسه حين (قدر المسافة بين عمله وأمله) وللجناس الناقص هنا مذاق خاص، تطوى به مسافات، وتختزن به معلومات، وتفسر به حالة الاندهاش التي تملكت الشيخ الكريم، فتأميل الرجل يتجاوز السبع الطباق بينما عمله لا يرتفع به أشبارا.

ويتآزر (التوصيف التفصيلي) مع التصوير المبدع في سبك العبارة، حين يتناول الشيخ مفهوم (جمال النفس) ومعالمه، وتتوالى الجمل مبينةتأثر ذلك الجمال في نسق متماثل، في قوله: "الجمال عمل حقيقي في جوهر النفس، يصقل معدنها، ويذهب كدرها، ويرفع خصائصها، ويعصمها من مزالق الشر،

(١) جدد حياتك/١٣٨.

وينقذها من خواطر السوء، ثم يبعثها في الحياة كما تنبعث النسمة اللطيفة في وقدة الصيف أو الشعاع الدافئ في سبرة الشتاء"([1]).

ودقة الصورة هنا في اختيار اللفظة التي تفيد تحديد الوقت ويفهم منها مستوى الصفة، (فالنسمة) يناسبها (وقدة) الصيف، وهي تعني شدة الحرارة وقت الظهيرة، بينما(الشعاع الدافئ) يناسبه (سبرة الشتاء) و"السبرة: الغداة الباردة"([2])، فالزمن محدد، والحرارة أيضا في أدنى درجاتها تبعا لذلك، إذ الغداة (ما بعد الفجر) هي أبعد أوقات اليوم من غروب شمس الأمس، لأنها قريبة من الشروق الجديد.

ومن التعليقات الجامعة ما جاء في خاتمة الكتاب من توصيف لخطورة (انحسار) علمائنا في نطاق معرفي محدود، وركن من الثقافة ضيق، بينما العالم يعج بالمعارف والثقافات يقول المؤلف: "إن ضيق العطن([3])، وسوء البصر بما يقع في الدنيا وما يتوقع، والانحصار في حدود الفكرة الخاصة، والاقتناع بجانب من المعرفة دون جانب، كل ذلك حجاب دون معرفة الإسلام والإفادة من تراثه الضخم، في ميادين الثقافة والتربية، والفقه والتشريع، وسياسة الأفراد والجماعات"([4])

---

(١) جدد حياتك /١٤٠.

(٢) لسان العرب (س ب ر).

(٣) (رجل واسع العطن): كثير المال واسع الرحل (اللسان ع ط ن)، و"ضيق العطن: قليل العطاء ضيق النفس" الزاهر في معاني كلمات الناس لمحمد بن القاسم الأنباري، تحقيق د. حاتم صالح ج٣٩٣/٢ ط١ مؤسسة الرسالة ١٩٩٢. وفي المعجم الوسيط "واسع العطن: واسع الصبر والحيلة عند الشدائد".

(٤) جدد حياتك/١٨٧.

٦] طول العبارة في حالات الإستقصاء والتفصيل: -

قد يحتاج السياق إلى تفصيل لعناصر المضمون، أو استقصاء لحالاته أو صوره، عند ذلك يلجأ المؤلف في تشكيله للنسق الأسلوبي إلى إطالة العبارة، بحيث تتطلب متابعة ونفسا طويلا، للوصول إلى غايتها ومرماها، ومن الأمثلة على ذلك قوله في الاعتبار بالماضي: "والبصر الذي ينفذ في أعماق الماضي، يستقرئ أنباءه، ويتعرف مواعظه، ويتزود من تجارب السابقين بذخر يجنبه الزلل. . هو البصر المؤمن الحصيف"(١).

والجملة الخبرية هنا، جاء خبرها بعد توصيف للمبتدأ مطول، شمل موصولا وصلته، وتفرعت عن جملة الصلة جمل أخرى، تكيف هدفها (يستقرئ...ويتعرف...ويتزود) ثم وصف ملحق بالجملة الثالثة-(بذخر) - وصف بجملة جديدة (يجنبه الزلل) ثم جاء بعد ذلك الخبر(هو البصر...).

والإطالة هنا سببها محاولة استيعاب المعنى المقصودمقيدا بالهدف والغاية، مبينة أهميته، فليس كل بصر يوصف بالحصافة، وليس كل قراءة للماضي مفيدة، فربما كانت تسلية هم أو شغل فراغ. ومن الجمل الطويلة قوله: - يعلل لضرورة الصبر على المكروه-"لو أن أيدينا يمكن أن تمتد إلى الماضي لتمسك حوادثه المدبرة فتغير منها ما تكره، وتحورها على ما تحب، لكانت العودة إلى الماضي واجبة، ولهرعنا جميعا إليه، نمحو ما ندمنا على فعله، ونضاعف ما قلت أنصبتنا منه"(٢).

ومما طالت العبارة فيه للتفصيل بتعداد صور المضمون، قوله – يعدد نعم الله –تعالى- على الإنسان-: "أقليل أن يخرج الإنسان من بيته وهو يهز يديه

---

(١) جدد حياتك /٨٣.

(٢) السابق/٨٤.

كلتيهما، ويمشي على الأرض بخطوات ثابتة، ويملأ صدره بالهواء...ويمد بصره إلى آفاق الكون...؟"(١) وقد سبقت الإشارة إلى هذا الموضع في خصيصة تآزر الأسلوب الخبري مع الإنشائي للإقناع و الإمتاع.

وإذا كان التفصيل في العبارة السابقة سببه عرض صور النعم، فإن المؤلف في موضع تال قد شرح أنواع الابتلاءات، وهو يرسم نوعا من التقابل بين العبارتين، يقول: "ألا تعلم أن هناك خلقا ابتلوا بفقد هذه النعم، وليس يعلم إلا الله مدى ما يحسونه من ألم؟ منهم من حبس في جلده، فما يستطيع حركة بعد أن قيده المرض، ومنهم من يستجدي الهواء الواسع نفسا يحيى به صدره العليل، فما يعطيه الهواء إلا زفرة وتخرج شاخبة بالدم، ومنهم من عاش منقوص الأطراف أو المشاعر، ومنهم من يتلوى من أكل لقمة لأن أجهزته الهاضمة معطوبة، ومنهم..ومنهم..، إذا كنت معافى من هذه الأسقام كلها فهل تظن القدر زودك بثروة تافهة؟ أو منحك ما لا تحاسب عليه؟ ..كلا، كلا، إن الله يكلفك بقدر ما يعطيك"(٢).

والنسق في هذه العبارة قائم على التفصيل بعد الإجمال، تفصيل أنواع المبتلين، وقد ربطت مفاصل السياق بالعطف (ومنهم. . ومنهم) وكررهذا الجزء في نهاية العبارة وحده، للدلالة على أن هناك صورا أخرى كثيرة يضيق المقام عن ذكرها، وكلها عبر، ويختم سياق العبارة بالجملة الحاكمةالتي تهز كيان القارئ لتنبهه (إن الله يكلفك بقدر ما يعطيك).

وما أشبه النسق هنا بالآية القرآنية الكريمةالتي تعدد صور إهلاك الكفرة والظلمة ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِۦ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ

(١) جدد حياتك /١١٠.

(٢) السابق.

﴿ٱلصَّيۡحَةُ وَمِنۡهُم مَّنۡ خَسَفۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ وَمِنۡهُم مَّنۡ أَغۡرَقۡنَا...﴿٤٠﴾﴾(١) ثم الختام بالحكم الرباني العادل" وما كان الله ليظلمهم، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون"(٢).

وليس ببعيد أن يتأثر الشيخ بالنسق القرآني، فيصوغ على منواله، فقد تشبع بمضامينه، ووقف حياته للدفاع عنه.

وقد حشد المؤلف في صياغته ألوانا من التصوير، تثير الأسى، فالمقعد أو الأشل (محبوس في جلده) والمصدور (يستجدي الهواء الواسع نفسا) والهواء (الواسع) يضن عليه فما يسمح إلا (بزفرة) ووصف (الزفرة) بـ(شاخبة بالدم) يوحي بتمكن الداء منه وبلوغه درجة خطيرة، "فالشخب: الدم...وشخب أوداجه دما فانشخبت: قطعها فسالت"(٣).

وفي موضوع (روحانية الرسول) يعدد المؤلف صنوف الناس الذين سينتفعون بالهدي النبوي، يقول عن النبي الكريم (ﷺ): "...بيد أنك لن تستطيع الآتصال به إلا إذا نشدت لنفسك المثل الرفيعة التي تحيا في سيرته...العصاة الذين يبغون التوبة، والجهال الذين يطلبون العلم، والحائرون الذين يبحثون عن قرار، والقاصرون الذين يسعون وراء الكمال، أولئك جميعا في جهادهم لبلوغ أهدافهم سوف يعرفون الكثير عنه (ﷺ) لأنهم سيهتدون بآيه، وينتفعون بنصحه"(٤)

(١) العنكبوت /٤٠.
(٢) السابق.
(٣) اللسان (ش خ ب)
(٤) جدد حياتك ١٦٧.

٧] توظيف نمط الكتابة وتشكيل السطر: -

لطريقة تشكيل السطر، من حيث استمراره حتى انتهاء مساحته، أو قطعه، دور هام في إشعار القارئ بأهمية المضمون، وبالدفقة المضمونية التي تحويها كل جملة فيه، كما أنه يساعد على استيعاب أجزاء المضمون النصي المنقول، أو الاستدلال المنطقي المسوق في قضية ما، وهو- أيضا- بالمساحات الفارغة التي يتيحها يعطي فرصة للعين للتعامل بشكل أكثر رحابة وأريحية مع النص، فليس هناك انضغاط يزعج العين ويربكها، أو يسبب تداخل الكلمات فيؤدي إلى الملل السريع.

والأمثلة على ذلك كثيرة بالكتاب، منها ما نقله عن (أبي حازم) في موضوع (عش في حدود يومك) حيث يقول:

- "**إنما بيني وبين الملوك يوم واحد. .**
- **أما أمس فلا يجدون لذته!**
- **وأنا وهم من غد على وجل !**
- **وإنما هو اليوم، فما عسى أن يكون اليوم؟**([1])"
- **ومنها الحديث القدسي الذي ساقه ليدلل على حب الرب لسؤال عبيده، رحمة منه وتفضلا، إذ يقسم المؤلف مقاطع الحديث على هذا النحو":**
- **يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته؛فاستهدوني أهدكم**
- **يا عبادي كلكم جائع إلا من أطعمته، فاستطعموني أطعمكم**
- **يا عبادي كلكم عار إلا من كسوته، فاستكسوني أكسكم**

(١) جدد حياتك /٢٤. وينظر: محاضرات الأدباء للراغب الأصفهاني، ج٢/٣٩٥، دار الأرقم، ١٤٢٠هـ.

• **يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعا، فاستغفروني أغفر لكم**"([1]).

ومنه- أيضا- الحديث الذي نقله يوضح به استغراق الرسول الكريم (ﷺ) في التأمل العالي وتعلق قلبه بالله (ﷻ)، يقدم بذلك مثالا نموذجيا للإنسانية الكاملة، حين ترتبط برب الأرض والسماء، وتنفض عن كاهلها القلق والأرق، يقول المؤلف: "انظر إلى قوة العاطفة ودفقها في هذه المناجاة الحارة: روى الإمام أبو داود وأحمد والنسائي عن (زيد بن أرقم) (رضي الله عنه) أن النبي (ﷺ) كان يقول دبر صلاته:

• "**اللهم ربنا ورب كل شيء..**
• **أنا شهيد أنك الرب وحدك لا شريك لك..**
• **اللهم ربنا ورب كل شيء، أنا شهيد أن محمدا عبدك ورسولك..**
• **اللهم ربنا ورب كل شيء، أنا شهيد أن العباد كلهم إخوة..**
• **اللهم ربنا ورب كل شيء، اجعلني مخلصا لك وأهلي في كل ساعة من الدنيا والآخرة..**
• **يا ذا الجلال والإكرام، اسمع واستجب..**
• **الله الأكبر الأكبر نور السموات والأرض..**
• **الله الأكبر الأكبر، حسبي الله ونعم الوكيل..**
• **الله الأكبر الأكبر.**"([2])

---

(١) جدد حياتك/١٦٤. والحديث في صحيح مسلمح٤ /١٩٩٤، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار التراث العربي. بدون ت.

(٢) جدد حياتك/١٦٨، والحديث في السنن الكبرى للنسائي، تحقيق حسن عبد المنعم شلبي، ج٩/٤٤ ط١ مؤسسة الرسالة، بيروت، ٢٠٠١م.

فالاهتمام البالغ بالنص النبوي الكريم، وبدلالة كل جملة بل كل لفظة فيه يفرض تقديمه مفصلا جملة جملة، لأن لكل جملة دلالتها في الإيقاع، وعملها في النفس مضمونا وشعورا.

ومن الأمثلة على توظيف (تشكيل السطر) ما نقله الشيخ من حديث ابن عباس (رضي الله عنهما) أنه قال: "كان النبي إذا قام من الليل يتهجد قال:

- **اللهم لك الحمد، أنت قيم السماوات والأرض ومن فيهن..**
- **ولك الحمد، لك ملك السماوات والأرض ومن فيهن..**
- **ولك الحمد، أنت نور السماوات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد، أنت الحق، ووعدك الحق، ولقاؤك حق، وقولك حق، والجنة حق، والنار حق، والنبيون حق، ومحمد حق، والساعة حق..**
- **اللهم لك أسلمت، وبك آمنت، وعليك توكلت، وإليك أنبت، وبك خاصمت، وإليك حاكمت، فاغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت...**"(١).

وقد يختلف تشكيل السطر هنا نسبيا عن النص السابق، فحين كانت الصيغة متعلقة بالذات المقدسة، وهيمنتها على (الكون المحيط بالإنسان) والممثل في (السماوات والأرض)، اختصت كل جملة بسطر خاص، (فهو قيم السماوات والأرض، وله وحده ملكها، وهو – كذلك– نورها، فلما بلغ السياق الحديث عن (الرسالة الإلهية إلى البشر) بما فيها من (وعد ووعيد، وأنبياء حملوا الرسالة، وجنة ونار، وقيامة للجزاء) جمع ذلك كله في نسق تشكيلي متصل، لاتصاله بمحور واحد هو (الرسالة وحاملوها ومضمونها).

(١) جدد حياتك/١٧٠، والحديث في: صحيح البخاري، تحقيق محمد زهير بن ناصر ج٢/٤٨، ط١، دار طوق النجاة ١٤٢٢هـ.

ثم ابتدأ النسق سطرا جديدا لابتداء محور جديد، هو الاعتراف الذاتي من النبي الأكرم (ﷺ) بالتسليم للعلي القدير – سبحانه– ثم طلب المغفرة منه، وقد بني النسق هنا على نمط متشابه في الإقرار، يتكون من (حرف الجر سابقا لكاف الخطاب ثم الفعل)، (لك أسلمت..بك...، عليك....).

وإذا كانت النصوص السابقة تتعلق بالنصوص المنقولة استشهادا، فإن هناك مواضع تدخل فيها تشكيل السطر في مجال الاستدلال العقلي والإقناع المنطقي، فمن القضايا المزعجة بالنسبة لمن يتعرض للعمل العام، قضية انتقاد الناس له، وهجومهم عليه، بالحق حينا وبالباطل أحيانا، والمؤلف هنا ينصح من وجه إليه النقد بالانتفاع به، ولو كان صاحبه سيئ النية، ثم يعلل ذلك قائلا:

- "**ومن يدري؟ لعل ذلك الانتفاع يكون أغيظ لنفوسهم المريضة..**
- **والعقل يتسمع ما يقوله أعداؤه عنه..**
- **وإذا كان باطلا أهمله فورا ولم يأس له..**
- **وإذا كان غير ذلك تروى في طريق الإفادة منه..**

فإن أعداء الإنسان يفتشون بدقة في مسالكه، وقد يقفون على ما نغفل نحن عنه من أمس شؤوننا".(١)

وبانتهاء هذا المبحث يظهر لنا أن خصائص (الشكل) في النسق البياني عند الشيخ تمثلت في افتتاحياته الحاشدة، وتآزر الأسلوبين الخبري والإنشائي عنده في الإمتاع والإقناع، و دقة توظيف الصورة البيانية، وبراعة الاستدلال المنطقي ودقة الاستشهاد النصي، و متانة السبك ودقة الصياغة في الاستنتاجات والتعليقات، و طول العبارة في حالات الاستقصاء والتفصيل، و توظيف نمط الكتابة وتشكيل السطر.

---

(١) جدد حياتك/١٨١.

المبحث الثاني

خصائص المضمون

تنقسم خصائص المضمون إلى قسمين.

أولهما: يتصل بطريقة التعامل مع المعلومات المعرفية وتطبيقاتها.

وثانيهما: ما يتعلق بالأصالة المعرفية التي تجمع بين الاستمساك بالجذور والانفتاح على المصادر المعرفية النافعة، في الفكر الإنساني.

القسم الأول: ما يتصل بطريقة التعامل مع المعلومات المعرفية وتطبيقاتها:

١- <u>توازن الرؤية في معالجة المشكلات النفسية والقضايا الدينية:</u>

من الخصائص البارزة في أسلوب المؤلف اعتدال ميزان الحكم في التعامل مع المشكلات بأنواعها، أو القضايا الفكرية على اختلاف صورها، فمن ذلك معالجته لقضية (سعي العبد بين التوكل والتسبب)، فبعد أن ينقل عن (ابن عطاء الله السكندري) توصيته للعابد بأن يسلم أمر تدبير شؤونه لله (ﷻ) يهتم – باعتباره حاملا لرسالة الإسلام مهموما بأن تصل إلى المتلقي صحيحة بلا انحراف – بأن يسارع إلى نفي الفهم الخاطئ، فيقول: "وسيثب إلى الذهن حتما بعد الاستماع إلى هذه النصائح أن الإنسان لكي يتم يقينه يجب أن يتجرد من حوله وطوله، وأن ينخلع من قواه، وأن يهمل الأسباب، وأن ينتظر من تدبير الله بعدئذ أن يقضي له ما يشتهي! وهذا خطأ محض...فإن شعور الإنسان بحوله ضرورة، ونهوضه للأسباب المعتادة حق"(١).

(١) جدد حياتك/١٥٠.

ثم يعود مرة أخرى إلى نصيحة (ابن عطاء الله) فيوجهها الوجهة الصحيحة، من حيث نوعية الجمهور الذي يتلقاها، يقول: "فإن كلمة (خفف السير) قد تقال لسائق عجل يندفع إلى الأمام بسرعة ربما تودي به! أما إذا وجهت الكلمة لقاعد يلعب، أو ماش متمهل فهي لغو قبيح...وأقطار الشرق الإسلامي الآن مزيج من الصنفين المتناقضين، يوجد فيه من يقال له: اعمل لتحيا، ومن يقال له: اهدأ لتحيا"(١).

ويشتد الشيخ في انتقاده للمتواكلين، ويوضح علاقة الإنسان بالقدر بما لا يدع في القضية لبسا فيقول: "فلا احتجاج بقدر ولا مكان للقول به حيث تستطيع أن تفعل وتترك.. ومن الغريب أن بعض المؤمنين يستحمق ويلوذ بالسكون والتجرد أو بالقعود والتماوت باسم التعويل على الله، وإسلام القياد له، وهذا جنون وكفران لا عقل وإيمان"(٢).

ويقارن بين (الإقراط في التسبب إلى حد القلق) عند الأمريكيين من رجال الأعمال، وبين(الكسل المتماوت) عند شاعر عربي ينقل عنه الشيخ قوله(٣):

والسعي للرزق والأرزاق قد قسمت * بغي ألا إن بغي المرء يصرعه

---

(١) جدد حياتك /١٥٢.

(٢) السابق/٦٦.

(٣) البيت لأبي الحسن علي بن زريق البغدادي ت ٤٢٠هـ، من عينيته التي مطلعها:

لا تعذليه فإن العذل يوجعه قد قلت حقا ولكن ليس يسمعه

لكن نص البيت في (المحاضرات والمحاورات لجلال الدين السيوطي ج١/٢٨٩ ط١ دار الغرب الإسلامي، بيروت) وفي (الكشكول لبهاء الدين العاملي، تحقيق محمد عبد الكريم نمري، ج١/٩٣، ط١ دارالكتب العلمية) هو: (والحرص في الرزق)، وعليه يكون البيت ليس في المحل المنتقد هنا.

ثم يقول: "إن أحاديث القدر علاج للقلق والتشاؤم، وليست ذريعة كسل أو خمول"(١).

وفي معالجة الغضب وطريقة التعامل مع الجهال والسفهاء المستفزين يذكر الشيخ عدة آثار نبوية كريمة، منها قوله (ﷺ): "ثلاث من كن فيه آواه الله في كنفه، وستر عليه برحمته، وأدخله في محبته: من إذا أعطي شكر، وإذا قدر غفر، وإذا غضب فتر"(٢).

ثم ينقل عن **(ديل كرنيجي)** مقولة تنسب إلى المسيح (عليه السلام) يقول فيها: "أحبوا أعداءكم"(٣)، ويعتبر **(كرنيجي)** محبة العدو علاجا للنفس والبدن معا، لكن الشيخ (رحمه الله) يعيد الأمر إلى توازنه المناسب، ما بين (القصاص من العدو) وبين (محبة ذلك العدو) فيقول: "أما محبة الأعداء فلعلها تعني إيثار العفو عنهم وتنقية القلب من الضغائن عليهم، وترك الانشغال بما أسلفوا من سيئات...أما أن تكون عواطف الإنسان سواء تجاه من يحسن إليه ومن يجور عليه فذاك مستحيل"(٤). ثم يستخلص الشيخ الثمرة العملية للتوازن هنا فيقول: "والتفرغ للخصومات ديدن من لا عمل لهم إلا اللجاجة وإيثار النزاع، لأنهم ليسوا أصحاب رسالة يحيون لها، وينشغلون بحقوقها"(٥).

---

(١) جدد حياتك /٦٧.

(٢) السابق/٩٨، والحديث في (المستدرك للحاكم) ج١/٢١٤، تحقيق مصطفى عبد القادر، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٩٠.

(٣) السابق/٩٩.

(٤) السابق/١٠٠.

(٥) السابق.

وفي موضوع (لا تنتظر الشكر من أحد) ينقل المؤلف عن (كرنيجي) قوله: "لماذا نتحسر على ضياع المنن وتفشي الجحود؟ إنه لأمر طبيعي أن ينسى الناس واجب الشكر،"(١)، لكنه يعترض على هذا الكلام ويثبت نصوصا نبوية منها: "لا يشكر الله من لم يشكر الناس"(٢).

ثم يعود إلى تحقيق التوازن بين (وجوب شكر صاحب المعروف) وبين (وجوب الإخلاص لله في إسداء المعروف) يقول الشيخ: "إلا أن الإسلام مع توكيده لواجب الشكر وتحقيره لشأن الجاحدين يطلب من أولي الخير أن يجعلوا عملهم خالصا لوجه الله...والمعروف الذي يقبل ويحترم هو الذي يبذله صاحبه بدافع الخير المحض لا يطلب عليه ثناء بشر"(٣). وإحداثا للتوازن في التعامل (مع التوافه من الأخطاء) أو (الصغائر) بحيث لا يهمل شأنها ولا يضخم فوق حجمه.. نرى المؤلف يقول: "وكما أن تجمع الصغائر مخوف العقبى على حياة الإنسان، فإن تجسيم الصغائر – بحيث تبدو إحداها وقد حجبت ما يجاورها من خير – ليس من الإنصاف في شيء...والنظر الذي يثبت على الصغائر لا يعدوها ولا يعتذر عنها بما يجاورها من خير وكمال.. نظر جائر"(٤).

ويستخلص الشيخ المربي ثمرة هذا الاعتدال في رؤية (التوافه) فيقول: "وجميل من الناس أن يعاشر بعضهم بعضا على هذه القاعدة من السماحة، وهذه

---

(١) جدد حياتك /١٠٥. و: دع القلق /١٧١.

(٢) السابق، والحديث في مسند الإمام أحمد، تحقيق شعيب الأرنؤوط وآخرين، ج١٣/٣٢٣، لكن فيه (من لا يشكر الناس).

(٣) السابق/١٠٥.

(٤) السابق/٦٠.

القاعدة إذا حسن تطبيقها فيما بين الأصحاب من أواصر فهي بين الزوجين ألزم"([1]).

ومن المعالجات التربوية تصحيح مفاهيم الأخلاق، وتخليصها من الإفراط والتفريط، من ذلك ما نبه إليه المؤلف وهو يتحدث عن قيمة (الصبر) فهو يذكر تعريف علماء السلوك له وهو: حبس النفس على المكروه، ثم يفسر هذا التعريف مبرزا ومستخلصا الفضيلة الاجتماعية في الصبر فيقول: "وهذا تفسير حسن إذا عنينا به مواجهة الشدائد البغيضة بثبات لا نكوص معه، وعقل لا يفقد توازنه واعتداله، غير أن حبس النفس على ما تكره إذا عنينا به دوام الشعور بمرارة الواقع، وطول الإحساس بما فيه من سوء وأذى، قد ينتهي بالإنسان إلى حالة منكرة من الكآبة والتبلد"([2]).

وبذلك يكون الصبر وسطا بين طرفين (جزع) و (استمراء للذل والضنك دون محاولة لتغييره أو الإفلات منه).

ومن أمثلة توازن الرؤية في فكر المؤلف، تصوره لمفهوم (الأنانية)، وتوضيح قيمة (حضور الذات والإحساس بها) في موطن العطاء أو الشجاعة وتحمل المهام الصعبة، فبعد أن يبين خطورة الأنانية على المجتمع، يعود فيقرر أن (أنا) ليست شرا محضا، فقد تكون "آية على تحمل التبعات الضخمة، وقد تكون مقصودة لذكر حقيقة يجب أن تتقرر في الأذهان"([3])، ويضرب لذلك الأمثلة من الحديث النبوي كقوله (ﷺ) "أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد

(١) جدد حياتك/٦٠.
(٢) السابق/١٢٥.
(٣) السابق/١٣٠.

المطلب"(١)، ويذكر أمر الله (ﷻ) لنبيه ﴿ قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي... ﴿١٠٨﴾ ﴾(٢) ثم يعلق قائلا: "(أنا) التي يقولها امرؤ في مجال الطمع، غير (أنا) التي يهتف بها رجل في مجال الفزع، وبين الاثنين بعد المشرقين"(٣).

ويقف المؤلف بين (ضعف الرأي وخور العزيمة والإمعية) وبين (القسوة على الناس واحتقارهم والزراية بهم) ليؤكد المضمون الوسطي بينهما والذي يمثل (استقلالية الشخصية) دون انحراف أو جور. يقول الشيخ: "والحق أن الرجل القوي يجب أن يدع أمر الناس جانبا، وأن يندفع بقواه الخاصة شاقا طريقه إلى غايته"(٤)، فهويمتدح القوة الذاتية، ويعول عليها في النجاح وبلوغ الأهداف، لكنه يسجل أن "بعض الأقوياء تتحول عندهم قلة الاكتراث بالناس وإساءة الظن بما يبدون من آراء أو يكنون من مشاعر إلى عاطفة تفيض بالزراية وتمتلئ بالقسوة، على نحو ما قال (المتنبي):

ومن يعرف الأيام معرفتي بها * وبالناس روى رمحه غير راحم"(٥)

ثم يعلق قائلا: "ونحن لا نقر هذا الانحراف في إهدار القيم وكل ما نوصي به ألا تعطى العامة فوق ما لها من حقوق عقلية أو خلقية، فإن مستويات

---

(١) أخلاق النبي وآدابه، لأبي الشيخ الأصبهاني، تحقيق صالح بن محمد الونيان، ج١/٣٤١، دار المسلم ١٩٩٨.

(٢) يوسف/١٠٨.

(٣) جدد حياتك /١٣٠.

(٤) السابق/١٧٧.

(٥) السابق/١٧٨، والبيت في ديوان المتنبي /٢٠٩، دار بيروت للطباعة، ١٤٠٣ هـ لكن أول البيت في الديوان (ومن عرف).

الجماهير لا تتحكم في تقرير الحق أو تحديد الفضيلة، بل تؤخذ الحقائق والفضائل من ينا بيعها الأصيلة"(١).

وقضية التعامل مع انتقادات الناس، هل يفضل تجاهلها تماما، أم يسمع لكل نقد منها ويرد عليه؟ إن المؤلف يقف من هذه القضية موقفا متوازنا، فيقول: "إن أصحاب الحساسية الشديدة بما يقول الناس الذين يطيرون فرحا بمدحهم ويختنقون جزعا من قدحهم هم في حاجة إلى أن يتحرروا من هذا الوهم"(٢)، ويقول: "وعلى الرجال الكبار أن يبنوا سلوكهم فوق هذه الأسس، فلا يتبرموا بالنقد المثارأو يقلقوا لكثرة الهجامين والشتامين"(٣)، لكنه يعود فيوصي العقلاء بقبول النقد الموضوعي الصحيح، فيقول: " أما الانتقاد الصحيح لما وقع فيه من أخطاء، أو الاستدراك على ما فاته من كمال فيجب أن نقبله على العين والرأس"(٤).

٢] إصلاح عوج الفهم للقضايا والنصوص:

في هذه الخصيصة يظهر أثر الرسالة التي يتحملها الشيخ كما ظهر في الخصيصة السابقة، فهو يشعر أن من مهامه – باعتباره مسؤولا عن دعوة الله تعالى وتبليغها – أن يصحح كل فهم أعوج يتعلق بنصوص رسالة الإسلام أو قضاياها، وقد صرح بذلك في قوله: "إنني لا أكتب إشباعا لترف علمي، قدر ما أكتب إصلاحا لأغلاط شائعة وأوضاع جائرة"(٥).

---

(١) جدد حياتك /١٧٨.

(٢) السابق/١٧٩.

(٣) السابق/١٧٨.

(٤) السابق/١٨٠.

(٥) جدد حياتك/١٤.

وأول ما يهدف إليه تصحيح العقيدة، يقول: "إن تصحيح الاعتقاد هو الهدف الأول للإسلام"([1])، وأول مفهوم يتعرض الشيخ لتصحيحه هو مفهوم (الفطرة) باعتباره مصطلحا شائكا، يراه كل إنسان بمنظوره الخاص، من هنا تصدى لتحريره، وتوضيح أبعاده في الصفحات الأولى من الكتاب، يقول: "وكلمة (فطرة) تتسع لدلالات متباينة، فقد تختلف طبيعتي وطبيعتك في الحكم على شيء واحد...فهل هناك ضوابط تمنع هذا التناقض الخطير؟"([2]).

وإنما اهتم المؤلف بتحرير هذا المصطلح لأنه مرتكز فكرة الكتاب الأساسية، القائمة على تقرير التقارب- وربما التطابق- بين وحي (الفطرة السليمة) و(وحي السماء). ولبيان (الفطرة) التي تعتمد تجربتها، لجأ المؤلف إلى الاستدلال المنطقي وضرب الأمثلة، يقول: "والجواب أن كلمة (فطرة) إذا أطلقت لا يصح أن يراد بها إلا الفطرة السليمة، فإن كل خلل يلحق الطبيعة لأي سبب لا يجوز أن يحسب منها ولا أن يحسب عليها! خذ مثلا الجنين.. المفروض أن ينزل من بطن أمه سوي الأعضاء والمشاعر، فلو حدث أن ولد أعمى لعلة في أحد أبويه فإن هذا العمى عرض غريب على الطبيعة التي يجب أن توجد كاملة، ومن ثم فإن هذا لا يغض من جعل البصر أصلا يقاس عليه، ويطرح ما عداه، وما يقال في عالم الحيوان يقال كذلك في عالم النبات. فالمفروض أن تجنى الثمار نقية من كل عيب يجيئها من عدو الحشرات والديدان...وكل تشويه يعترض عظمة الفطرة وروعتها فهو شذوذ ينبغي أن يذاد ويباد"([3]).

---

(١) جدد حياتك /١٥٤.

(٢) السابق/١٢.

(٣) السابق/٦.

ثم يصل المؤلف إلى النتيجة المرادة من هذا القياس التمثيلي فيقول: "والمجتمع الإنساني يجب أن يسير على هذا الغرار، فأصحاب الصحة النفسية والعقلية وأصحاب الأمزجة المعتدلة والطباع المكتملة هم وحدهم الذين يسمع منهم ويؤخذ عنهم، أما المعلولون والمنحرفون وأصحاب الأفكار المختلة والغرائز المنحلة فهم كالثمار المعطوبة في عالم النبات، أو الأجنة الشائهة في عالم الحيوان، ليسوا أمثلة لسلامة الفطرة ولا يجوز أن يطمأن إلى أحكامهم ولا إلى آرائهم، ولو بلغت بهم الجراءة أن يزعموها نداء الطبيعة ومنطق الفطرة"(١).

ثم يشير إلى الذين يفسدون الفطرة ويحذر منهم فيقول: "فقد كثر في الدنيا من يدعو إلى تعرية الأرواح والأجسام من لباس التقوى والفضيلة، باسم أن ذلك عود إلى الطبيعة وتمش مع الفطرة..! والحق أن دور هؤلاء بين الناس هو دور الجراثيم الفطرية في إعطاب الثمار وإمراض الأبدان، أي أنهم خطر على الطبيعة الصحيحة والفطرة السليمة"(٢).

وحين يتعرض الشيخ لأهمية قضية (الإيمان بالله) في تحقيق الطمأنينة ودفع القلق لدى الناس جميعا، يؤكد على تصحيح تصور البشر للبارئ سبحانه، وتصورهم كذلك لطريقة التعبد له والتقرب منه، يقول: "وحقيق بالناس أن يفزعوا إلى الله كلما حزبتهم شدة أو رابتهم أزمة...بيد أنه من الحق – كذلك– أن لا نجهل هذا الذي نسأله، وألا نتقرب إليه بأسلوب يمقته، وألا ننسب إليه – عن خطأ أو عمد– ماهو برئ منه"(٣).

---

(١) جدد حياتك/٧.

(٢) السابق/٨.

(٣) السابق/١٥٤.

ويضرب لهذه الصور المختلة التي عددها في معرفة الله والاتصال به نماذج من وثنية المشركين وعقيدة التثليث عند النصارى، ثم يعقب قائلا: "إننا نكره الإلحاد الذي جعل من الأجيال الحاضرة قطعانا تحيا في العالمين وهي متنكرة لرب العالمين"(١).

ولأن الشيخ يخاطب بكتابه كافة أطياف الجنس البشري ويتوجه إليها بدعوة مفتوحة إلى (توحيد الخالق والواهب) سبحانه.. فإنه يعرض نصوصا من التنزيل العزيز تؤكد قضية التوحيد، ويذكر من كتب النصارى ما يتطابق معها، لعل مثقفا طالبا للحق باحثا عنه بإنصاف يصله هذا الكتاب (جدد حياتك) فيجد ذلك التطابق فتهديه تلك الطريقة إلى الحق، ومن نماذج تلك النصوص قوله: "ففي سفر التثنية(٢): (لتعلم أن الرب هو الإله ليس آخر سواه) وذلك كقول الله تعالى: ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ...﴿١٩﴾ ﴾(٣).

وتصحيحا لمفهوم (البلاء) واستقبال العبد له، ورضاه به يؤكد أن هذا الرضا لا يعني أن البلايا غاية تطلب، أوأن آلام الدنيا درجات رفيعة يشتاقها عشاق الجنة ويضرب مثالا لذلك بقوله: "من الذي يحب العمى؟ إن الرسول الكريم كرهه لنفسه...لكن بعض الناس قد يبتلى بفقد عينيه، فهل ندعه للألم يحز في نفسه حتى يذوب حسرة؟ كلا. هنا يجيئ قول الرسول الكريم راويا عن ربه: (إذا سلبت من عبدي كريمتيه وهو بهما ضنين لم أرض له ثوابا دون الجنة إذا هو حمدني عليهما)...فهل يفهم من هذا الكلام المبين أن العمى غاية تطلب؟ !إن تفكير المتصوفة سقط في هذه الهاوية، وجر معه عوام المسلمين، فضلل في هذه

(١) جدد حياتك/١٥٤.

(٢) إصحاح ٥ عدد ٣٦.

(٣) السابق/١٥٥، والآية الكريمة من سورة (محمد)/١٩.

الحياة مساعيهم وبدد قواهم، وجعل مثلهم العليا تتخبط في آفاق داكنة من البأساء والضراء، والسر هو الخلط بين دائرتين متمايزتين كل التمايز، منفصلتين أتم الانفصال، دائرة (ما منه بد) و(ماليس منه بد)...إن (الرضا بالقسمة) أصبح سبة في التفكير الإسلامي، لأن الذين تلقوا الأمر وضعوه في غير موضعه، فسوغوا به الفقر والكسل والخمول بدل أن يهونوا به كبوات السعي الجاد وهزائم العاملين المرهقين ومتاعب المظلومين في وظائفهم وهم لا يستطيعون حيلة"(١)!.

ويقرر الشيخ في إطار حديثه عن (حب النفس) أنه "ليس ضعة بالمرء- كمايزعم الزاعمون- أن يعبد الله ابتغاء جنته أو خشية من ناره، إن ذلك كمال عظيم ومسلك كريم، ولا تخدعنك عن هذه الحقيقة شطحات الصوفية وخيالاتهم الحائرة ﴿ قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ ﴾ "(٢)، وهكذا يضع الشيخ الأمر في نصابه ويصحح فهما ساد بين عدد كبير من المسلمين، ويقطع النص القرآني المذكور بأهمية هذا التصحيح.

وللرياضات النفسية أثر على اطمئنان الإنسان ومقاومته لنوازع القلق، ولكن هذه الرياضات عندنا -نحن المسلمين- "أصابها من التطرف والفوضى ما أزرى بنتائجها"(٣) كما يقول المؤلف، وهو يوضح ذلك بقوله: "إن متصوفة المسلمين الأول انحصروا في نطاق تصوراتهم، وغالوا بالنتائج الشخصية التي أحرزوها، وحاولوا أن ينظروا من خلالها إلى حقائق الكون والحياة فضلوا وأضلوا"(٤).

---

(١) جدد حياتك /٧٢.

(٢) الزمر/١٣، و: جدد حياتك/١٢٩.

(٣) السابق /٩٢.

(٤) السابق.

وخطورة الأمر تكمن في تحويل ما هو فردي وخاص إلى قانون عام، وفي جعل الخوارق النادرة تلغي سنن الله في الكون، وأن يعتمد على ذلك جمهور المسلمين، وقد انتشرت تلك الخوارق في بعض الفترات حتى صارت "وباء يجتاح القرى والمدن، فما يكاد يمر يوم حتى تضيف (الروايات) خارقا لرجل ماجن أو ماجد، وكرامة لولي صالح أو داهية خبيث"(١)، ويذكر المؤلف أن هذه (الأساطير) انتقلت إلى ميادين التجارة والصناعة والعلم والحرب، حتى أن الخديوي إسماعيل في حربه مع الحبشة حين "أحس ما لاقته حملاته هناك من خيبة أمر علماء الأزهر أن يجتمعوا في صحنه ليقرءوا (صحيح البخاري)!"(٢)، ثم يعلق الشيخ على هذه الحادثة التاريخية بقوله: "كأن تلاوة السنة كلها أو القرآن كله ترد الهزائم عن الفرق المدبرة لسوء خطتها أو ضعف عدتها!"(٣).

ويشرح المؤلف ضرورة اعتبار (نتائج الرياضات النفسية) فردية خاصة فيقول: "إن الأنظار والأحكام يمكن أن تتفاوت تفاوتا واسعافي المجالات الاعتبارية البحتة، ويمكن أن تزيد قواك أو تنقص تبعا لما في نفسك من همة ونشاط وإقبال، أما قوانين المادة العتيدة فهي لا تماع وفق الأهواء والميول"(٤). وفي محور (الأعمال التي تغفر بها الذنوب) يذكر الشيخ فئة من الناس تريد الحصول على جميع المكاسب دونما جهد تبذله، ومهما ارتكبت من أخطاء فإنها لا تقدم عملا تستحق به محو تلك الأخطاء، ويرى أن ذلك عوج في فهم النصوص التي يبدو من ظاهرها قرب المغفرة لمن قدم عملا يسيرا، يقول:

---

(١) جدد حياتك /٩٣.

(٢) السابق.

(٣) نفسه.

(٤) السابق/٩٤.

"أعرف من مطالعاتي الكثيرة أن هناك من الآثار ما يقرن المغفرة العامة بعمل قد يبدو في ظاهره سهل الأداء، كتساقط الذنوب مع قطرات ماء الوضوء مثلا، فلا يضطرب فهمك في قيم الأعمال لهذه الظواهر، وتأكد أن الثواب الجزيل لا يسوقه الله (ﷻ) في عمل كالوضوء إلا إذا صاحبه من عمق الإيمان وصدق الإخلاص وجمال الاحتساب ما يجعل صاحبه أهلا لأن يبذل النفس والنفيس في سبيل الله تبارك وتعالى"(١).

ويقدم المؤلف الدليل النصي على رؤيته فيقول: "إن أولي الألباب لما دعوا الله أن يغفر ذنوبهم كان من إجابته لهم أن قال: ﴿...فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ...﴿١٩٥﴾﴾ (٢)، أما الحمقى فهم الذين يتوهمون أن خطيئاتهم الكبرى تذوب من تلقاء نفسها دون أن تعالج بالدلك والتطهير والإنقاء، وما يستتبعه ذلك من جهد مضن وسهر طويل"(٣).

ويؤكد الشيخ هذا المضمون في موضع آخر، وهو يتناول قضية (الجزاء) على العمل، إذ يورد حديثا للنبي (ﷺ) تأتي في نهايته هذه العبارة بعد قصة طويلة: "أدخلوا عبدي الجنة فنعم العبد كنت يا عبدي، فأدخله الله الجنة، قال جبريل: إنما الأشياء برحمة الله يا محمد"(٤).

---

(١) جدد حياتك /١٣٩.

(٢) آل عمران/١٩٥.

(٣) جدد حياتك/١٣٨.

(٤) السابق/ ١١٤. والحديث في: الترغيب والترهيب، للحافظ المنذري، ج٢١٦/٤، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت.

ثم يعلق الشيخ على العبارة الأخيرة فيقول: "وبعض الحمقى يمطون كلمة (إنما الأشياءبرحمة الله) ليجعلوا الحساب فوضى، وليوهموا أن العمل لا يرشح لجنة أو نار! إنما هي الرحمة العليا؛ يظفر بها فريق – ولو كان عاصيا– فيدخل الجنة! ويحرم منها آخر – ولو كان طائعا – فيدخل النار!.. وقد شاعت هذه السخافات بين الأجيال المتأخرة من المسلمين فضللت فكرهم، وأوهنت سعيهم، ولم تزدهم عن الله إلا بعدا، وبدينه إلا جهلا"(١).

ولا يترك الشيخ القضية هنا حتى يقدم الأدلة النصية على ما تقدم، فيقول: "كيف يدخل الجنة من لم يرشحه لها جهده، والله يقول: ﴿ ۞ لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ ۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾ ﴾(٢)، ويقول: ﴿ تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾ ﴾(٣)، ويقول ﴿ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾(٤).

إن كلمة السر في جميع القضايا التي يعالجها الشيخ والنصوص التي يعرضها في نطاق تصحيح الفهم..هي نفي الخمول والكسل والاتكالية عن تعاليم الإسلام، أن تأمر بشيء من ذلك أو تؤدي إليه، والتأكيد على أن الإسلام دين عمل وحركة ونشاط وتفاعل وتسخير لقوى الكون والحياة باسم الله، وهي النقطة المحورية التي تأخر المسلمون بسبب الفهم الخاطئ لها، والتي بها أيضا تقدم غيرهم فدانت لهم الحياة، وخضعت لهم أسبابها، والشيخ (رحمه الله) لا يفتأ يذكر

---

(١) جدد حياتك/١١٥.

(٢) الأنعام/١٢٧.

(٣) مريم/٦٣.

(٤) الزخرف/٧٢، وينظر: جدد حياتك/١١٥.

بهذه القضية، حتى في أخص الأعمال التعبدية المحضة، فهو يقول عن (الاستعاذة) مثلا: "هذه الاستعاذة تصور لجوء المؤمن إلى الله، يحتمي بقوته ويستجير بعزته أن يبقي عليه جمال نفسه غير مشوب بوسوسة شيطان ولا معيب بنية غدر أو ختل أو شر لأحد من الناس"(١)، ثم يعقب: "والاستعاذة لا بد معها من عمل؛ فإذا قال الفلاح: أعوذ بالله من القحط !فما تقبل منه إلا إذا كان يقوله وهو يحرث أرضه ويسقي زرعه ويتعهد بذوره حتى تبلغ نهايتها...وإذا قال المسلم: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم فما يجديه هذا إلا أن يكون مقاوما لإغراء الشر، مدافعا للسيئات التي تعرض له، دائم التحليق مع معاني العبادة المفروضة عليه"(٢).

٢- مقاومة جزئية الرؤية و [نصفية] الفهم:

من خصائص أسلوب الشيخ في التعامل مع المعلومات والقضايا التي يطرحها للنقاش..حرصه على اكتمال الرؤية وتمام الفهم واستيعاب ما يطرح من مفاهيم العلم مستوفاة غير منقوصة، والإحاطة بجوانب المسألة التي تعالج دون غبش أو غموض أو إخلال بأحد جوانبها، ذلك لأن كثيرا من الخلل سببه الاجتزاء، والاستغناء ببعض عناصر الصورة عن رؤية باقيها، يقول عن فئة (أنصاف المتعلمين من الملحدين): "هي طائفة عرفت بعض الحق، وجهلت بعضه الآخر، ولم تتريث لتستكمل معرفتها، بل أصدرت حكمها الحاسم على ضوء ما عرفت فقط، وتصور كيف تكون فوضى التقاضي لو أن القضاة أصدروا أحكامهم بعدالاستماع لنصف روايات الخصوم ونصف دفاع المحامين؟! كذلك فعل أولئك الملحدون، فقد أعلنوا إلحادهم بعد أنصبة محدودة

(١) جدد حياتك/١٤١.
(٢) السابق.

من الدراسة التي نقلت إليهم بعض خصائص الأشياء، وكشفت لهم بعض آفاق الوجود، وحكت لهم بعض فصول القصة"(١).

ويؤكد المؤلف أن (إلحاد أنصاف المتعلمين) آفة مركبة من جزأين، أحدهما نفسي وهو (الغرور) والثاني علمي وهو (التقليد)، ثم يذكر قول (فرنسيس بيكون) "إن قليلا من الفلسفة يجنح بالعقل إلى الإلحاد، ولكن التعمق في الفلسفة خليق أن يعود بالمرء إلى الدين"(٢).

ويؤكد الشيخ- في موضع آخر- أن صيانة الحقيقة يحتاج إلى ضبط حدودها، لتكتمل صورتها ويعرف عند ذلك مغايرها، يقول: "إن الصورة الكاملة لابد لها من حدود تنتهي إليها، وعند النهاية المرسومة لهذه الحدود تبدأ حقائق مغايرة، ولن تتميز معرفة الشيئ إلا إذا عرفت الأغيار المجاورة له أو المشتبهة به، ولذلك قال الأقدمون (وبضدها تتميز الأشياء)"(٣).

وضرب الشيخ مثالا لذلك قول عمر (ﷺ): "إنما ينحل الإسلام عروة عروة إذا نشأ في الإسلام من لا يعرف الجاهلية"(٤).

إذن فدراسة الثقافات العالمية ضرورة علمية، لرؤية الحق كاملا، كما أنها فريضة شرعية لمعرفة فضل الإسلام على ما سواه".

ولذا يرتب الشيخ على ذلك تحذيره لعلماء المسلمين "إن قصر باعهم في علوم الحياة هو أبشع جريمة ترتكب ضد الإسلام"(٥).

---

(١) جدد حياتك/١٤٦.

(٢) السابق/١٤٧.

(٣) السابق/١٨٧.

(٤) السابق/١٨٨.

(٥) السابق/١٨٨.

٣- رصد التشوهات النفسية التي تفسد عالم التفكير أو التدين:

من خصائص أسلوب المؤلف من الجهة الموضوعية أنه يكاد يكون قد وقف قلمه لكشف كل مظهر للزيف أو معوق للإرادة الحرة في فكر الإنسان وشعوره، ولذا فهو يدقق ويرصد ملامح الخلل النفسي، الذي يكاد يصل إلى درجة التشوه، وهذا الخلل إذا وقع في جانب الفكر فإنه يعقمه، ويمنعه النضج والأداء الفاعل، وإذا وقع في عالم التدين فإنه يدمر جوهره، ويبقيه شكلا بلا مضمون، ومظهرا بلا مخبر.

من صور التشوهات التي تفسد الفكر والفن والدين معا (التقليد) وقد تناوله المؤلف في موضوع مستقل بعنوان (أنت نسيج وحدك)(١)، فبين فيه أولا لماذا يعد الحسد جهلا والتشبه انتحارا؟ ولماذا يصدق على كل إنسان أنه نسيج وحده؟ ذلك أن علم الوراثة ينبئنا أن كل فرد كون جنينا من ٢٣ زوجا من الكروموزومات، وأن كل واحد منها يحمل مئات (الجينات)، وكل (جين) يستطيع تغيير شخصية الفرد، وأن احتمالية التنوع في المكونات (الجينية) للفرد الواحد تبلغ ثلاثمائة ألف بليون، فلو كان له هذا العدد من الإخوة لاختلفوا جميعا عنه، كما أن التنزيل العزيز يؤكد ذلك في قوله -تعالى-: ﴿ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ... ﴿١٤٨﴾ ﴾(٢)، و(الوجهة) هنا – حسب ما نقله المؤلف عن مجلة منبر الإسلام – تتجاوز المفهوم المستنبط من سياق الآيةوهو (القبلة) لتشمل (المذهب)، ولا يراد به المبدأ السياسي أو الاقتصادي أو الفلسفي، بل هو: مجموع المواصفات التي تكون كيان الفرد بدنيا ونفسيا، والتي تشكل (المزاج

(١) معناها: لا نظير له في علم أو غيره (الصحاح: و ح د).
(٢) البقرة/١٤٨.

المعنوي)، هذا المزاج هو الموجه الداخلي للإنسان في سلوكه، وهو يجمع الطبع والغرائز والفكر معا، وهو (حقيقة الفرد) بخصائصه المستقلة([1]).

أما إفساد التقليد للمحيط الاجتماعي فأول مظاهره أنه يلغي التنوع الذي خلق الله عليه البشر، وهذا التنوع يعني تعدد الطاقات وتباين الإمكانيات، التي تفيد المجموع، كما تتنوع الثمار ولكل مذاقه وجماله الخاص، كما أنه يضيع قيمتي الإخلاص والمناصحة اللتين تشكلان أشخاصا قادرين على حمل العبء، لا مجرد أعداد، أو أرقام مكررة، وقد ضرب الشيخ مثالا لهاتين القيمتين من موقف الصديق والفاروق (رضي الله عنهما) في أسرى بدر، حيث أدلى كل منهما بما تمليه عليه قناعته الخاصة.

ويعلق الشيخ على ذلك بقوله: "وهذا المسلك الحر المنزه عن الملق والميوعة هو الإسلام: فطرة الله التي فطر الناس عليها"([2]).

وثالث تلك المظاهر أنه يكرس(النفاق والتدليس) وتقديم (أهل الثقة) في تحمل المهام على (أهل الكفاية) من أصحاب الطبع الحر، ثم إن التقليد في المجال الديني يمسخ الشخصية، وقد ذكر الشيخ قصة طالب (الحقوق) الذي تمثل بقول(ابن الفارض):

ولو خطرت لى في سواك إرادة على خاطري يوما حكمت بردتي

ويعلق الشيخ: "وهذا حكم باطل، وقد نسمعه من أساتذته الكبار في ميدان الدعوة والتعبد والمجاهدة المضنية، فلا نسيغه منهم إلا على تجوز وإغماض"([3]).

---

(١) يراجع: جدد حياتك/١٢٠.

(٢) السابق/١١٧.

(٣) السابق/١١٨، والبيت في ديوان ابن الفارض/٥٢، دار صادر، بيروت، غير أن فيه (سهوا) بدل (يوما).

والمسخ هنا سببه – كما نقل المؤلف عن (وليم جيمس)–: "أن الواحد منا يعيش في حدود ضيقة يصنعها داخل حدوده الحقيقية، فإنه يمتلك قوى كثيرة مختلفة، ولكنه لا يفطن إليها عادة، أو يخفق في استغلالها كلها"(١).

وإذا كانت الوجهة في قوله تعالى: ﴿ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ﴾ هي الشخصية المستقلة –كما سبق– فإن (مسخ) هذه الشخصية هو تغيير لخلق الله، وإلغاء لميزة تعدد زوايا الرؤية التي تشكل بمجموعها (الحقيقة) من جميع جوانبها، فإذا ألغيت تلك الميزة، تبلدت الأفكار وركدت العقول، حيث حصرت في طريق واحد هو (ما أريكم إلا ما أرى)(٢).

ومن تلك التشوهات آفة(الرياء) يقول المؤلف: "المؤسف أن أغلب البشر تهيجهم للعمل بواعث مشوبة، ويطلبون به غايات شتى، وقليل جدا أولئك الذين يتحركون بدافع نقي، ويرتفعون بمقاصدهم عن مآرب هذه الأرض"(٣).

ويرصد الأثر الاجتماعي لهذه الآفة– سواء كانت فعلا لما يحمد عليه المرءأو اتقاء ما يذم عليه – فيقول: "والبعد عن الدنية اتقاء ذم الناس ليس خيرا محضا، وتتكشف حقيقة هذا الخير المغشوش عند أمن الناس، ماذا يصنع هذاالإنسان عندما يخلو بنفسه ويوقن أن الناس لن يطلعوا على ما يفعل أو يترك؟ إن عشاق الثناء وطلاب الظهور لا يبالون عندئذ أن يرتكبوا العظائم"(٤).

وكما أن هناك من الناس من يبحث عن بقعة الضوء ويعمل لثناء الناس، هناك (الإمعة) الذي يراعي حكم الناس على الشيئ ليلزمه أو يتركه، وهناك

---

(١) جدد حياتك/١١٩.

(٢) يراجع: جدد حياتك/١٢٣.

(٣) السابق/١٠٦.

(٤) السابق/١٠٧.

من يتبع الغالب ولو كان ظلوما فاجرا، ومن يتبع الغني ولو كان سفيها، وكل هذه الآفات يجمعها الخضوع لاختيار الناس دون تمحيص "وإن أحسن ما قيل في إدراك الجماهير للصواب هو ما جاء في الآية الكريمة: ﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ...﴿١١٦﴾ ﴾(١).... والذين يبنون احترامهم لأمر ما على أساس ما يقارن هذا الأمر من عناصر الغلب والظهور كثير جدا...والعامة للأسف مع صاحب الدنيا ولو كان زنيما، والألسنة في إعلاء شأنه قلما تفتر رغبة أو رهبة!.

والناس من يلق خيرا قائلون له * ما يشتهي ولأم المخطئ الهبل"(٢)

ومن التشوهات القبيحة ذات الأثر المدمر (التحاسد) وبخاصة بين ذوي الرياسة والمكانة في أي مجال، ويكون الأمر أشنع في دائرة المتدينين وحملة رسالات السماء، يقول المؤلف: "وأكاد أقول إن التحاسد على الصغائر له مجاله بين الصغار، أما الصور الكالحة للحسد، الطامسة للحق، المرهقة للضمائر، فهي بين أولئك الكبراء في مناصبهم المرموقين بالتجلة والاحترام في أغلب الأحيان...ولست أعرف منظرا أشوه ولا أقبح من كاهن أو واعظ يتحدث عن الله بلسانه ومن وراء أرديته الفضفاضة ووظيفته الدينية نفس ترتع فيها جراثيم الأنانية الصغيرة والتطلع الخسيس ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ

---

(١) الأنعام/١١٦.

(٢) جدد حياتك /١٨٠، والبيت للقُطَامي، عمير بن شييم من قصيدة أولها

(إنا محيوك فاسلم أيها الطلل * وإن بليت وإن طالت بك الطيل)

كما في ديوانه، تحقيق: محمود الربيعي/١٩٣، الهيئة العامة للكتاب، ٢٠٠١. و في: (تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام) لشمس الدين الذهبي، تحقيق د. بشار عواد، ج١٤٣/٣، دار الغرب الإسلامي ٢٠٠٣م.

يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِكُمۡ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنۡ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡحَقُّۖ ...﴿١٠٩﴾﴾(١).

ويسلط الشيخ الضوء بصورة أكبر على التحاسد في مجتمع (الرياسات الدينية) فيقول مستنتجا سر اختيار النبي (ﷺ) من الأميين، واختيار عيسى (عليه السلام) طفلا ينطق في المهد، وليس من علماء اليهود، يقول: "وأظن أن الله اختار نبيه الأخير من الأميين اختصارا للمتاعب التي تنشأ لو أنه اختير من آباء الكنيسة، وهذا كلام أقوله بعدما بلوت العمل في البيئات الدينية بضع عشرة سنة، فلو كان محمد (ﷺ) واحدا من أولئك المحترفين ثم اصطفته العناية من بينهم ليؤدي رسالة الصلاح والإصلاح، لقال كاردينال عجوز: أنا أسن منه ! ولقال ثان: أنا أسبق منه في الخدمة، ولقال ثالث: إن كان عالما فليس إداريا، وإن كان إداريا فليس بعالم مثلي، ولقال رابع: إنه يخطئ في إقامة الطقوس، ولاتهمه خامس بكذا وسادس بكيت !ثم يجتمع عليه المتنافرون ليشلوا دعوته ويحبطوا رسالته، وقد كان الله – تعالى– قادرا على أن يجعل عيسى واحدا من علماء اليهود، ولكنه ترك بيئتهم تغلي بأحقادها، وبتنازعها على الرياسات والمطامع، ثم جعل كلامه على لسان طفل، ينطقه الوحي وهو في المهد – لعل الكهان الشيوخ يتعظون"(٢)

(١) جدد حياتك/١٧٤، والآية الكريمة رقم ١٠٩ من سورة البقرة.
(٢) السابق/١٧٥.

القسم الثاني: ما يتعلق بأصالة المضمون المعرفي التي تجمع بين الاستمساك بالجذور والانفتاح على مصادر الفكر الإنساني:

اهتم المؤلف بالانفتاح المعرفي على الثقافات الإنسانية بقدر اهتمامه بإبراز أصولنا المعرفية المرتبطة بهويتنا وتاريخنا الثقافي، وتمثل انفتاحه على المعارف الإنسانية في الإفادة من التجارب البشرية مهما تنوعت مشارب أصحابها وثقافاتهم، ما دامت لا تصادم قيمنا وهويتنا، كما تمثل اهتمامه بأصولنا المعرفية في تجلية المثل العليا والنماذج الرفيعة في القيم الإنسانية لتكوين النموذج الإنساني الراقي، ثم الانتصار لقضية (الإيمان) في مواجهة (الإلحاد)، ووصول كثير من علماء الغرب إلى اليقين بوجود الله، ومناقشة نكوصهم عن اتباع دين سماوي، ثم إعلاء قيمة الميراث التربوي والقيمي للنبي (ﷺ) ثم لعلمائنا، وإبراز جهودهم في التأسيس (لصحة نفسية) والوقاية من نوازع القلق والاكتئاب.

ويعد هذا القسم من الخصائص (صفحة عربية إسلامية) يعرضها المؤلف في ميدان المعالجات التربوية للنفوس في مقابل (الصفحة الأمريكية) التي عرضها (كرنيجي) في كتابه.

١- الإفادة من التجارب البشرية مهما تنوعت مشارب أصحابها:

هذه الخصيصة مؤسسة على (أن الحكمة ضالة المؤمن) وأن هناك صلة قوية بين تعاليم الإسلام كما وصلت إلينا وبين أنظف وأصدق ما وصلت إليه حضارة الغرب في أدب النفس.

ومن البدهي أن المؤلف في تناوله لتلك التجارب لم يقف منها موقفا واحدا، بل تنوعت مواقفه منها ما بين الموافقة والتأييد وما بين المعارضة والانتقاد، وتصحيح ما يجافي المنطق المقبول أو يصادم الفطرة السوية مما نقله (كرنيجي) في كتابه.

فمن المواضع التي أيدها المؤلف، وعضدها بشواهد إسلامية ونصوص عربية ما ذكره **(كرنيجي)** عن **(هنري فورد)**(١) – مؤسس شركة فورد للسيارات سنة ١٩٠٣–فقد لقيه **(كرنيجي)** قبل وفاته، وقد بلغ الثامنة والسبعين وسأله: هل عانى من القلق شيئا؟ فأجاب "كلا، فإني أعتقد أن الله– سبحانه– قدير على تصريف الأمور وأنه –تعالى– في غير حاجة إلى نصيحة مني، ولهذا فأنا أترك له تصريف أموري بحكمته جل شأنه !فعلام إذن يتولاني القلق؟"(٢).

ثم يعلق الشيخ بقوله: "هل كان **(فورد)** زميلا **(لابن عطاء الله السكندري)** في هذا المنطق الممتلئ بالتسليم والثقة فيما تجيء به الأقدار؟ إن كان المستر **(فورد)** لم يعرف **(ابن عطاء الله)** ولم يأخذ عنه، فإليك خلاصة لكلام هذا العالم المسلم تلمح فيه قوة الشبه بين المنطقين على تباعد الديار والأعصار!!

قال **(ابن عطاءالله)** يحض على التسليم لله، ويحصي آداب التجرد: **الأول:** علمك بسابق تدبير الله فيك وذلك أن تعلم أن الله كان لك قبل أن تكون لنفسك، فكما كان لك مدبرا قبل أن تكون ولاشيء من تدبيرك معه، كذلك هو سبحانه مدبر لك بعد وجودك، فكن له كما كنت له يكن لك كما كان لك. **الثاني:** أن تعلم

(١) توفي عام ١٩٤٧ وهو مبتكر خط التجميع لإنتاج السيارات، وله كتاب (اليهودي العالمي المشكلة العالمية الأولى)، ترجمه: أكرم مؤمن، ونشرته مكتبة ابن سينا، سنة ٢٠١٣م..

(٢) جدد حياتك/١٥٠، و: دع القلق /٢٢٢.

أن التدبير منك لنفسك جهل منك بحسن النظر لها. الثالث: علمك بأن القدر لا يجري لك على حسب تدبيرك بل أكثر ما يكون هو ما لا تدبر، وأقل ما يكون ما أنت له مدبر. والرابع: علمك بأن الله تعالى هو المتولي لتدبير مملكته علوها وسفلها، غيبها وشهادتها، وكما سلمت له تدبيره في عرشه وكرسيه وسماواته وأرضه، فسلم له تدبيره في وجودك بين هذه العوالم"([1]).

ومما وافق فيه الشيخ مؤلف **(دع القلق)** ما نقله عنه في موضوع **(أنت نسيج وحدك)** إذ يقول **(كرنيجي)**: "إنك شيء فريد في العالم. إنك نسيج وحدك، فلا الأرض منذ خلقت رأت شخصا يشبهك تمام الشبه، ولا هي في العصور المقبلة سوف ترى شخصا يشبهك تمام الشبه"([2])

وينقل الشيخ من كتاب **(دع القلق)** أقوال عالم الوراثة (أمران شاينفلد([3]) Amran Scheinfeld) التي تؤكد أن كل إنسان مخلوق متفرد وراثيا، ثُم يقول الشيخ الغزالي بعد ذلك معقبا ومؤيدا، وناقلا من مصادرنا العربية ما يعضد ما سبق: "على هذه الأسس العلمية التي نقلناها وشرحناها فسرت مجلة (منبر الإسلام) قوله (ﷻ) (ولكل وجهة هو موليها فاستبقوا الخيرات)([4]).

وتفسر المجلة كلمة (وجهة) على أنها الخصائص البدنية والنفسية التي خلق عليها الفرد، والتي تكون منه نموذجا فريدا لا يتكرر فتقول: "فإن الناس جميعا ليسوا نسخة مكررة متماثلة في ملامح النفس ومشابه البدن فهم من حيث

---

(١) جدد حياتك/١٥٠ و: التنوير في إسقاط التدبير لابن عطاء الله، تحقيق محمد الشاغول، ص٣١ – ٣٥، ط١، المكتبة الأزهرية ٢٠٠٧م.

(٢) جدد حياتك/١١٩، و: دع القلق /١٨٨.

(٣) أستاذ بكلية الطب جامعة كورنيل بالولايات المتحدة.

(٤) البقرة/١٤٨، وينظر: جدد حياتك /١٢٠.

القالب الحسي مختلفون طولا وقصرا ونحافة وغلظا، وقوة وضعفا، وصحة ومرضا..وفي صفة الأنف والعين والفم وسائر ملامح الوجه...هذا الاختلاف المعجز العجيب الذي يدل على قدرة الخالق سبحانه، يقابله اختلاف آخر في ملامح النفس، وتسوية الطبع، وتقدير الغرائز، وخصائص الفكر والعاطفة...فلكل إنسان قالبه البدني الذي لا يماثله فيه أحد، وكيانه المعنوي الباطن الذي يتميز به عمن سواه"(١).

وإذا كان الشيخ قد وافق **(كرنيجي)** في بعض الآراء، فإنه انتقده في مواضع متعددة من كتابه، وقدم الفكرة البديلة لما انتقده.

من ذلك ما نقله عن قصة رجل أصابته قرحة في أمعائه بلغ من خطورتها أن الأطباء حددوا له أوان وفاته، لكنه فاجأهم بقرار عجيب، أنه سيقوم برحلة حول العالم يستمتع فيها بكل أنواع الملذات التي حذروه منها، متمثلا بقول الخيام(٢):

- **انعم أقصى النعيم بما ملكت يداك!**
- **قبل أن توسد اللحد فلا شيء هناك!**
- **سوى تراب من تحتك وتراب من أعلاك!**
- **فلا شراب ولا غناء ولا نهاية بعد ذاك!**

ويعلق الشيخ بعد ذلك" ثم ماذا؟ ثم يزعم **(ديل كرنيجي)** أن الرجل صح من علته..."(٣).

---

(١) جدد حياتك/١٢١.

(٢) يراجع: جدد حياتك/٣٠، و: دع القلق /٤٤.

(٣) جدد حياتك /٣٠.

وقد انتقد الشيخ هنا هذه القصة، لا من جهة الانتعاش النفسي وأثره في مقاومة المرض، بل من زاويتين أخريين؛ الأولى هي: ضرورة التفريق بين (الصبر) و(البلادة) في مواجهة الأزمات، وفي ذلك يقول الشيخ: "وإذا وجدت الصبر يساوي البلادة في بعض الناس فلا تخلطن بين تبلد الطباع المريضة وبين تسليم الأقوياء لما نزل بهم...إن الرجل العربيد الهجام على لذائذ الحياة – متعسفا أو متلطفا في اقتناصها –ربما تصيبه النازلة من نوازل الدهر فيلقاها في غير مبالاة، أو يقول قول (امرئ القيس): اليوم خمر وغدا أمر."(١)

والشيخ إذا كان لا ينكر قيمة الانتعاش النفسي في علاج الأمراض فإنه لا يعد ذلك قاعدة مطردة، بل يعده أمرا نادرا، وهو يعلل ذلك بقوله: "وفي الحياة أناس يلوذون بالاستخفاف والسخرية من كل شيء، فإذا صوبت الأحداث لهم سهما مس جوانبهم كما تمس القذيفة الطائشة أطراف رجل مشغول عنها بأمر نفسه، وحالات هؤلاء لا تجعل مثلا يحتذى في تحمل الشدائد بجلد أو مرح، وكل ما تدور عليه أن الحساسية بالآلام تتفاوت تفاوتا واسعا بين الناس، وأن الاستغراق في حال ما، طيبة أو خبيثة يخفف من حدة الشعور بالأذى، ومن ثم وجب على طلاب الكمال وأهل المروءة أن يتحصنوا بمثلهم العليا وأن يلتمسوا السلوى في ظلها، وأن يجدوا في ذلك عزاء لا يجده الشطار والفجار في الرضا بمآربهم الدنيا"(٢).

والزاوية الثانية التي نقدها الشيخ هي اعتبار الموت عدما محضا، يقول: "بيدأننا نلفت النظر إلى الغلط الشنيع في فهم الموت على أنه عدم محض، وسوق أبيات الخيام السابقة لحفز الشهوات على التهام ما يمكنها من الحياة قبل

(١) جدد حياتك/٢٩.
(٢) السابق/٣٠.

أن تنتهي هذه الحياة ولا تعود. . هذه أكذب فرية يشيعها المبطلون في أرجاء العالم"([1]).

ويعود الشيخ إلى الحديث عن (مواجهة المصائب) في موضوع (قضاء وقدر)، فينتقد –مرة أخرى– الطريقة التي ساقها (كرنيجي) في هذه الحالة، يقول: "إن الرجل – يقصد كرنيجي– يطلب من المصاب أن يتبلد أمام الأنواء، كما تتبلد (قطعان الجاموس وجذوع الأشجار)"([2])، ثم يعلق الشيخ: "وهومعذور فيما يصف لأنه لم يقع على الدواء الذي بين أيدينا ولنسمع له يقول: رفضت ذات مرة أن أقبل أمرا محتما واجهني، وكنت أحمق، فاعترضت وثرت وغضبت وحولت ليلي إلى جحيم من الأرق...وما كان أخلقني أن أردد مع الشاعر **(والت هويتمان)** قوله:

- **ما أجمل أن أواجه الظلام والأنوار والجوع**
- **والمصائب والمآسي واللوم والتقريع..**
- **كما يواجهها الحيوان وتواجهها الأشجار والجذوع**

ولقد أمضيت اثني عشر عاما مع الماشية، فلم أر بقرة تبتئس لأن المرعى يحترق، او لأنه جف لقلة المطر..."([3]).

ويشتد الشيخ في انتقاده اللاذع لذلك النوع من المعالجة، فيقول: "ذلك هو العلاج (الحيواني) الذي يقترحه لمكافحة الأزمات"([4]).

---

(١) جدد حياتك/٣١.

(٢) السابق/٦٩.

(٣) السابق/٧٠. و: دع القلق /١١٥.

(٤) جدد حياتك/٧٠.

ولا يترك الشيخ المجال قبل أن يقدم نموذجا إنسانيا رائعا للصبر، وحسن استقبال قدر الله –تبارك وتعالى– يضرب بذلك مثلا بديلا لما عرض **(كرنيجي)** من نماذج، إنه [صبر النبي الكريم يعقوب (عليه السلام)] الذي لم يزد في محنة غياب (يوسف) على أن قال: ﴿ ...فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ (١)، وبدل أن تأتي الأيام بإجابة للغز اختفاء ابنه (يوسف)، تتعقد الأحداث فيختفي (بنيامين) فيكرر للمرة الثانية العبارة ذاتها، ﴿ ...فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ ﴾(٢).

ثم يقطف المؤلف ثمرة القصة قائلا: "وهل هناك مسلك أرشد من الاعتراف بالواقع ونشدان تغييره من صاحب الإرادة العليا، وواهب الخير الجزيل؟ إن وخزات الأحداث قد تكون إيقاظا للإيمان الغافي ورجعة بالإنسان إلى الله، وهذه النتيجة تحول الداء دواء والمحنة منحة...وهي ثمرة أحلى مما يذكره **(كرنيجي)** عوضا عن الإيمان بالقضاء والقدر"(٣).

ومن العلاجات التي اقترحها **(كرنيجي)** لمقاومة (الفزع من المستقبل المجهول) سرد إحصاءات صادقة عن النوازل التي تقع للبشر في البر والبحر، ويعلق الشيخ على ذلك بقوله: "وهو علاج في نظرنا لا يحسم العلة التي تنتشر حتما حيث تفرغ القلوب من الإيمان"(٤).

---

(١) يوسف/١٨.

(٢) يوسف/٨٣، وينظر: جدد حياتك/٦٩.

(٣) جدد حياتك/٦٩.

(٤) السابق/٦٥.

ويعلل الشيخ هروب الغربيين من المعالجات الإيمانية لأمراض النفوس بقوله: "إن الحضارة الحديثة سيئة العلم بالله، وهي بالتالي مزعزعة الثقة فيه، ولذلك تعالج أدواءها بأدوية رديئة، من مراهنة تسمى تأمينا، ومن إحصاءات تبين للمرعوبين أن نسبةالإصابات أخف مما يتصورون"(١).

والشيخ – أيضا– لم يقبل قول **(كرنيجي)** : "لماذا نتحسر على ضياع المنن وتفشي الجحود؟ إنه لأمر طبيعي أن ينسى الناس واجب الشكر..."(٢)، يقول الشيخ: "وهذا كلام يحتاج إلى تعقيب وإيضاح، فإن إقفار النفوس من نضارة الشكر وانتشار الجفاف أو الأشواك بها فحسب منكر قبيح، وينبغي أن نزعج الناس عنه، وأن نعلمهم الحفاوة بما يسدى إليهم من معروف"(٣).

٢- تجلية المثل العليا لتكوين النموذج الإنساني الراقي: -

يحرص الشيخ على تجاوز عوائق الأرض وجواذب المتاعب اليومية وأشواك العلاقات الاجتماعية، ليحلق بالقارئ في مدارج سامية، تتلألأ فيها (إنسانية الإنسان) بالبر والمرحمة والعطاء الخالص من المن، وهو يبحث دوما عن مكونات نفسية الحر ليزكيها وينميها.

ومن أمثلة ذلك رصده لتحرر القلب من الأغراض، حين لا يبتغي إلا وجه الله تعالى، وهذا التحرر يشكل نموذجا بشريا لا يكاد يوجد في ثمار (التربيات) الأخرى، غير تربيتنا القائمة على أصول إنسانية، ثم شرعية في وقت معا.

يقول الشيخ: "والإسلام بما يفرضه على العمل من إخلاص يريد أن يحرر القلوب من قيود الأغراض، وأن يعلقها بالكمال المطلق، فهي تفعل الخير عن

---

(١) جدد حياتك.

(٢) السابق/١٠٤، و: دع القلق /١٧١.

(٣) جدد حياتك/١٠٤.

بواعث نقية، أي عن حب مكين له، ورغبة قوية في تحقيقه، دون نظر إلى مدائح الناس، أو تطلع إلى منزلة ما بينهم، وهذا السمو المنزه هو دعامة الإحسان الحق، وهو المثل الأعلى لكل خلق كريم"(١).

ويضرب لذلك مثلا رائعا من الصحابة الكرام هو عبد الله بن عباس (رضي الله عنهما) في حادثة فريدة يقول الشيخ: "روي أن رجلا تطاول على عبد الله بن عباس فقال له: أتشتمني وفيّ ثلاث: إني لأسمع بالحاكم من حكام المسلمين يعدل فأحبه ولعلي لا أقاضي إليه أبدا!، وأسمع بالغيث يصيب البلد من بلاد المسلمين فأفرح به وليس لي به سائمة ولا راعية!، وآتي على الآية من كتاب الله فأود لو أن المسلمين كلهم يعلمون منها مثل ما أعلم"(٢).

ثم يعلق الشيخ قائلا: "ما هذا؟ .. هذا رجل يحب شيوع الحق والخيروالعلم ويفرح من أعماق قلبه لو استمتع الناس بما فيها من بركات، ولو لم يمسسه من ذلك حظ كبير أو صغير، إن هذا التعلق بالكمال المطلق، والإحسان المبرأ أهم ما يطلبه الإسلام منك حين تسدي إلى أحد معروفا. قدم جميلك عشقا لصنائع المعروف، وابتغاء ما لدى الله من مثوبة ولا تعول على حمد أحد أو تقديره"(٣).

إن هذه الخصيصة من خصائص النسق البياني عند الشيخ منحدرة مما يتغياه الشيخ من (أصالة معرفية) مرتبطة بالجذور، في محور المقارنة بين (ثقافتنا) و(الثقافات الأخرى).

---

(١) جدد حياتك/١٠٥.

(٢) السابق/١٠٦. وقد ذكر الحافظ ابن كثيرهذا الأثر مع تغيير في النص لا يغير المضمون العام في: البداية والنهاية، تحقيق علي شيري، ج٨/٣٣٣، ط١، دار إحياء التراث ١٤٠٨هـ.

(٣) جدد حياتك/١٠٦.

ويؤكد الشيخ – في موضع آخر– أهمية التحرر من (الغرضية) فيقول: "فلنفعل الخير عن حب مكين ولنطهره من علل المن والظهور، ولنتحرر من الأغراض الصغيرة التي تجعل الرجل لا يعطي إلا ليكتسب نصيرا أو ليتخذ يدا"([1]).

ويقول في محور (التحرر من أسر الطمع أو الخوف): "وأول معالم الحرية الكاملة ألا يضرع الرجل لحاجة فقدها، وعندما يكون المرء عبد رغبة تنقصه فتلك ثغرة في رجولته وهي بالتالي ثلمة في إيمانه، والإيمان الحق يجعل الرجل صلب العود، لا يميل مع كل ريح ولا ينحني مع أي خلة"([2]).

ويتحدث عن معالم (العظمة) في شخصية (الرجال) فيقول: "فالرجل العظيم حقا كلما حلق في آفاق الكمال اتسع صدره، وامتد حلمه، وعذر الناس من أنفسهم، والتمس المبررات لأغلاطهم"([3]).

ويقول عن دور (النموذج الإنساني) كما يكونه الإسلام: "إن المسلم الكامل عضو نافع في أمته، لا يصدر عنه إلا الخير ولا يتوقع منه إلا الفضل والبر، فهو في حركته وهدأته شعاع من نور الحق، ومدد من روافد البركةواليمن، وعون على تقريب البعيد وتذليل الصعب، يسعى في هذه الحياة وقلبه مفعم بالمحبة، ولسانه رطب بالود والمسالمة، ويده مبسوطة بالنعمة يفيئها على من يلقاه، ويقدمها– من غير تكلف– إلى سواه"([4]).

---

(١) جدد حياتك /١٣٦.

(٢) السابق/٢٩.

(٣) السابق/٩٦.

(٤) السابق/١٣٢.

ثم يقول عن المجتمع الذي يتشكل من النموذج السابق: "والمجتمع الزكي يقوم على رجال يعرفون حق الله وحق الجماعة عليهم"(١).

ويقول عن دور(أولي العزم من الرجال) في تنمية المثل العليا في معرض حديثه عن الفاروق عمر (رضي الله عنه): "إن عمر وأمثاله من كبار الرجال يعرفون طبيعة هذه الحياة الدنيا، ويعرفون الوظيفة المضنية التي يقوم بها أولو العزم في غرس الإيمان والخلق والعدالة، وفي خلع الحشائش السامة والعوسج الشائك الذي ينتشر في تربة هذه الأرض البائسة فيملؤها بالمظالم والظلمات..."(٢).

والمؤلف دائم البحث عن (أسرار العظمة) في النفوس ليبرزها ويجليها، يقول عن وصف القرآن لخليل الرحمن وبنيه (عليهم السلام) (واذكر عبادنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب أولي الأيدي والأبصار)(٣).. يقول معلقا: "فهل فقهت أسرار العظمة في أطواء هذا الوصف الموجز؟ أولي الأيدي والأبصار! أصحاب القوى الفارهة والأبصار النيرة، أصحاب الإقدام الذي لا يشوبه عجز، والنظر الذي لا يشينه جهل"(٤).

ويقول في موطن آخر: "إن الاكتفاء الذاتي وحسن استغلال ما في اليد ونبذ الاتكال على المنى هي نواة (العظمة النفسية) وسر الانتصار على الظروف المعنتة"(٥).

---

(١) جدد حياتك/١٣٧.

(٢) السابق١٦١.

(٣) سورة ص/٤٥.

(٤) جدد حياتك/١٦٦.

(٥) السابق/٢٤.

ثم إنه لا يرى التدين إلا " يقظة في العقل. ونبلا في العاطفة، وسيادة لا تلحقها ضعة، وتحليقا لا يدنيه إسفاف"([1]).

٣- الانتصار لقضايا الإيمان في مواجهة الإلحاد:

لا شك أن رسالة المؤلف باعتباره عالما مسلما هي الدافع وراء فكرة الكتاب، من هنا كانت قضية (الإيمان) محورية فيه، فقد خصص لها موضوعا مستقلا، وكان من أخطر ما ناقش في هذا الموضوع تساؤل مؤداه: هل قمم الغرب العلمية والسياسية تعرف الله؟ وهل اعترفوا بذلك؟ ولماذا لم يكملوا الطريق باتباع دين سماوي؟

وقد أجاب عن هذه التساؤلات بقوله: "إن العلم المجرد هدى ألوف العلماء إلى الله ووقفهم أمام قدرته الرائعة مبهورين، وكذلك فعل التفكير السليم عند كثير من الساسة والقادة"([2]) لكن هؤلاء العلماء والساسة "...كرهوا استكمال زادهم الروحي مما يعرفون من أديان"([3])، والمؤلف يلتمس لهم العذر، بسبب التشويه – الذي لا تقبله العقول – في عقيدة النصارى كالتثليث والصلب والفداء، وبسبب ما احتقن في نفس علماء اليهود من عنصرية وشعور بالاضطهاد، ثم بسبب واقع المسلمين المزري وتقهقرهم البالغ في الميدان الحضاري([4])، و"أن رسالة محمد (ﷺ) من الناحية العلمية البحتة – لم تعرض عرضا يري الناس جوهرها كما جاء من عند الله!!"([5]).

---

(١) جدد حياتك/١٤٣.

(٢) السابق/١٤٧.

(٣) السابق.

(٤) يراجع: السابق /١٤٧.

(٥) السابق/١٤٩.

وهو يرفض بشدة جعل قضية الإيمان مجرد (ضرورة اجتماعية) لحفظ الأمن وترويض العوام، ويرى أن أصحاب هذه الفكرة "لا يكترثون لكنه هذا الإيمان ولا لمتعلقاته"(١)

ويعلق بقوله: "وهذا تفكير سخيف وإزراء بحقيقة الدين وقيمته، بل استهانة بالحقيقة نفسها، وبأقدار عارفيها، فإن الاعتراف بوجود الله يجب أن يكون بخضوع العقل والفؤاد للأدلة التي استبانت صحتها ولا محيص عن المصير إليها والتسليم لها...فالإيمان بالله الواحد ليس لعبة سياسية أو تشريعا استثنائيا،.. كلا، إنه الحقيقة التي ضل عنها الغافلون أو المستغفلون"(٢).

٤- الإشادة بالميراث التربوي والقيمي للنبي (ﷺ) ثم لعلمائنا الأوائل:

يخصص المؤلف موضوعا عن خاتم النبيين (ﷺ) ويختار الجانب الروحي من جوانب الشخصية النبوية بعنوان (روحانية الرسول) ولعل ذلك إشارة إلى العلاج الذي ينقص الفكر المادي في الغرب وما أنتجه من قلق واضطراب نفسي، هذا العلاج يقدم هنا في صورة النموذج المثالي للإنسان الذي يعيش بين الناس على الأرض وقلبه مرتبط بالسماء، يقول المؤلف: "إنه [أي النبي (ﷺ)] خيرمن حقق في نفسه وفي الذين حوله – حياة الإنسان الكامل، الإنسان الرباني المستخلف في ملكوت الله، لينقل إليه أطرافا من حقيقة هذه الخلافة الكبيرة"(٣). ثم يبين ضخامة العطاء التربوي والنفسي عند النبي الكريم فيقول: "وفي

(١) جدد حياتك/١٥٢.
(٢) السابق.
(٣) جدد حياتك/١٦٧.

المواريث العقلية والعاطفية التي تركها هذا النبي الكريم ترى كل العناصر التي يستطيع بها أي إنسان أن يقوم بوظيفته الصحيحة في الحياة"(١).

ويشير إلى مصدر هذا الثراء التربوي فيقول: "وينابيع الحياة الفكرية والعاطفية في نفس الرسول الكريم (ﷺ) تجيء من معرفته الساطعة بالله، وذكره الدائم له، وأخذه بنصيبه الضخم من معاني الكمال في أسمائه الحسنى"(٢).

ويوضح المؤلف ملامح القوة في الجانبين (الوجداني) و(الذهني) لدى النبي الكريم وكيف استطاع الاحتفاظ بصفائه النفسي، وتوقده العقلي برغم اختلاطه المستمر بالناس؟

فأما القوة (الوجدانية) فيقول عنها: "انظر إلى قوة العاطفة ودفقها في هذه المناجاة الحارة، عن زيد بن أرقم أنه (ﷺ) كان يقول دبر صلاته: اللهم ربنا ورب كل شيء. . أنا شهيد أنك الرب وحدك لا شريك لك.....إلى آخر الحديث" وقد سبق عرضه كاملا في خصيصة (توظيف نمط الكتابة وتشكيل السطر)(٣).

وقد تكررت في هذا الابتهال النبوي عبارات (اللهم ربنا ورب كل شيء) و(الله الأكبر الأكبر) وهي كما يقول المؤلف: "تنفيس عما استكن في نفسه (ﷺ) من روعة ومحبة وإجلال"(٤)، وتعبير عن "معان متجددة من الولاء والهيام"(٥)، حين عجزت ألفاظ اللغة عن ملاحقة "هذاالجيشان المنساب في كل دعوة".

---

(١) جدد حياتك/١٦٧.

(٢) السابق.

(٣) السابق/١٦٨.

(٤) السابق.

(٥) السابق.

وأما القوة (الذهنية) فتظهر في أنه كان (ﷺ) "في نهاره مستجمع الفكر مركزه...فإذا نام نضحت هذه الحساسية الشديدة على حالته النفسية، فهو في رقاده يقظان القلب"(١).

وأما (صفاؤه النفسي) برغم اختلاطه المستمر بالناس فسره "اتصال قلبه برب الأرض والسماء وجريان فكره على نسق لا تدركه الخاصة بله الدهماء"(٢)، ومن مظاهر هذا الصفاء أنه "يترك أثره العميق في الآخرين ولا يتأثر هو بما في نفوسهم من ضيق وانحصار"(٣).

أما المواريث العقلية والعاطفية التي تركها النبي الكريم فهي المصدر الأول الذي اعتمد عليه الشيخ في كتابه، والتي نقل عنها – بمصادرها المختلفة – ما يقوم الانحراف ويصلح العوج في التربية النفسية في عامة موضوعاته، وقد توقف في أحد هذه الموضوعات ليبين جهود أحد ورثة النبوة من علمائنا البررة في (قيادة النفوس إلى الحق وتخليصها من غرائز السوء التي تثقل بها إلى الحضيض)، ذلكم العالم الرباني هو العلامة (ابن القيم) الذي قدم في كتابه (روضة المحبين ونزهة المشتاقين) وصفة دوائية مفصلة للخلاص من أسر الهوى وبراثن الشيطان، وللنجاة في أخطر لحظات الضعف البشري، وقد شملت هذه (الوصفة) (استعادة وتجديدا وتنشيطا) لمعالم (العزة) في نفس الكائن البشري، ولعناصر استمداد القوة فيه إذ جمعت بين (عزيمة الحر، وجرعة الصبر، وشجاعة المقدام على المكاره، وأنفة العزيز أن يذل للهوى وأن يقهره عدوه الشيطان، وفرحه واعتزازه بقهر ه ذلك العدو، ثم (ملاحظته) أن ألم

(١) جدد حياتك /١٦٩.
(٢) السابق/١٧١.
(٣) السابق.

مخالفة الهوى أهون من ذل المعصية، وأن طاعته لهواه وخيمة العواقب عند الله وعند الناس، وأنها تناقض مكانته كخليفة عن الله مكرم بتكريم ربه، ثم (موازنته) بين سلامة دينه بالعفة وبين ضياعه بالشهوة.

وواضح أن(وصفة العلاج) قد جمعت بين (استثارات وجدانية كالعزيمة والصبر) و(استرجاعات معلوماتية ذات أثر وجداني أيضا كـ(الملاحظة) و(الموازنة)([1]).

وبذلك نستطيع أن نفخر بأن لدينا من (الأطباء النفسيين) من علمائنا من يضاهي أحدث ما قدمه العلم في (العلاج الروحاني).

وبانتهاء هذا المبحث تتضح لنا خصائص الشق الثاني من (النسق البياني) عند الشيخ الغزالي وهو (المضمون)، وهي قسمان؛ أولهما يتصل بطريقة تعامله مع المعلومات المعرفية وتطبيقاتها، وقد ظهر فيه حرصه على توازن الرؤية في معالجة المشكلات النفسية والدينية، وإصلاحه لعوج الفهم في القضايا والنصوص، ومقاومته لجزئية الرؤية و (نِصفيّة) الفهم، ورصده للتشوهات النفسية التي تفسد عالم التفكير أو التدين.

وأما ثانيهما فيتعلق بأصالة المضمون المعرفي، تلك التي تجمع بين الاستمساك بالجذور والانفتاح على مصادر الفكر الإنساني، وقد تبين فيه اهتمامه بالإفادة من التجارب البشرية مهما تنوعت مشارب أصحابها، وبتجلية المثل العليا لتكوين النموذج الإنساني الراقي، ثم بالانتصار لقضايا الإيمان في مواجهة الإلحاد، والإشادة بالميراث التربوي والقيمي للنبي (ﷺ) ثم لعلمائنا الأوائل، وما قدموه من معالجات نفسية رائعة.

---

(١) يراجع:جدد حياتك /١٤٣. و: روضة المحبين ونزهة المشتاقين للعلامة ابن القيم ج١/٤٧١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٣هـ.

الخاتمة

الحمد لله والصلاة والسلام على خاتم رسل الله

وبعد،،

فما زالت الفكرة في كتاب **(جدد حياتك)** في حاجة إلى تناول يتجاوز حدود اللغة، ويستخدم أدوات البحث المقارن، فيطلع على كتاب **(دع القلق)** في لغته الأصلية، ويتعرف على مصادره، فتنفتح أمامنا أبواب واسعة للمقارنة بين ثقافتنا وثقافة الآخرين.

كما أن مؤلفات الشيخ الغزالي خاصة ومؤلفات علمائنا عامة تحتاج جهود الباحثين لإبراز معالمها وتجلية مآثرها.

ولا زالت توصية الشيخ في آخر كتابه **(جدد حياتك)** تنادي على كل باحث مجد (إن أنفسنا وبلادنا وحياتنا وآخرتنا في ظمأ هائل إلى مزيد من المعرفة والضياء).

المصادر والمراجع

١) تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، شمس الدين الذهبي أبو عبد الله محمد بن أحمد، تحقيق د/بشار عواد، ط١، دار الغرب الإسلامي، ٢٠٠٣م.

٢) التنوير في إسقاط التدبير، ابن عطاء الله السكندري، تحقيق محمد الشاغول، ط١، المكتبة الأزهرية، ٢٠٠٧م.

٣) جدد حياتك، الشيخ محمد الغزالي، ط٦، دار الدعوة، الاسكندرية، ١٩٩٩م.

٤) درء تعارض العقل والنقل، الإمام ابن تيمية، تحقيق د/ محمد رشاد سالم، ط٢، جامعة الإمام محمد بن سعود، ١٤١١هـ.

٥) دع القلق وابدأ الحياة، ديل كرنيجي، تعريب عبد المنعم الزيادي، ط١٦، مكتبة الخانجي، القاهرة، بدون ت.

٦) ديوان ابن الفارض عمر بن أبي الحسن، دار صادر، بيروت، بدون ت.

٧) ديوان القطامي (عمير بن شييم) ت١٠١هـ، تحقبق محمود الربيعي، الهيئة العامة للكتاب ٢٠٠١م.

٨) ديوان من دواوين، عباس العقاد، ط١، دار نهضة مصر، ١٩٩٦م.

٩) روضة المحبين ونزهة المشتاقين، ابن قيم الجوزية محمد بن أبي بكر، دار الكتب العلمية بيروت، ١٤٠٣هـ.

١٠) الزاهر في معاني كلمات الناس. محمد بن القاسم الأنباري، تحقيق د/حاتم صالح، ط١، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٢م.

١١) الشيخ الغزالي كما عرفته. رحلة نصف قرن، د/يوسف القرضاوي، ط١، دار الشروق، ٢٠٠٠م.
١٢) محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء، الراغب الأصفهاني أبو القاسم الحسين بن محمد، ط١، دار الأرقم، بيروت، ١٤٢٠هـ.
١٣) المفضليات، للمفضل بن محمد بن يعلى الضبي، تحقيق أحمد شاكر وعبد السلام هارون، ط٦، دار المعارف، القاهرة.

فهرس المحتويات

العنوان	الصفحة
• **مقدمة**	٢١٣
• **تمهيد:** حياة الشيخ الغزالي ونهجه في كتاب (جدد حياتك)	٢١٦
• **المبحث الأول:** خصائص الشكل:	٢٢٢
◊ الافتتاح الحاشد	
◊ تآزر الأسلوبين الخبري والإنشائي في الإقناع والإمتاع	
◊ دقة توظيف الصورة البيانية	
◊ براعة الاستدلال المنطقي ودقة الاستشهاد النصي	
◊ متانة السبك ودقة الصياغة في الاستنتاجات والتعليقات	
◊ طول العبارة في حالات الاستقصاء والتفصيل	
◊ توظيف نمط الكتابة وتشكيل السطر	
• **المبحث الثاني:** خصائص المضمون:	٢٥٥
القسم الأول: ما يتصل بطريقة تعامل المؤلف مع المعلومات المعرفية وتطبيقاتها:	
◊ توازن الرؤية في معالجة المشكلات النفسية والقضايا الدينية	
◊ إصلاح عوج الفهم للقضايا والنصوص	
◊ مقاومة جزئية الرؤية ونصفية الفهم	
◊ رصد التشوهات النفسية التي تفسد عالم التفكير أو التدين	
القسم الثاني: ما يتعلق بأصالة المضمون المعرفي التي تجمع	٢٧٦

بين الاستمساك بالجذور والانفتاح على مصادر الفكر الإنساني: ◊ الإفادة من التجارب الإنسانية مهما تنوعت مشارب أصحابها ◊ تجلية المثل العليا لتكوين النموذج الإنساني الراقي ◊ الانتصار لقضايا الإيمان في مواجهة الإلحاد ◊ الإشادة بالميراث التربوي والقيمي للنبي (ﷺ) ثم لعلمائنا الأوائل وإبراز جهودهم في هذا المجال	
الخاتمة	**٢٩٢**
المصادر والمراجع	**٢٩٣**
فهرس الموضوعات	**٢٩٥**